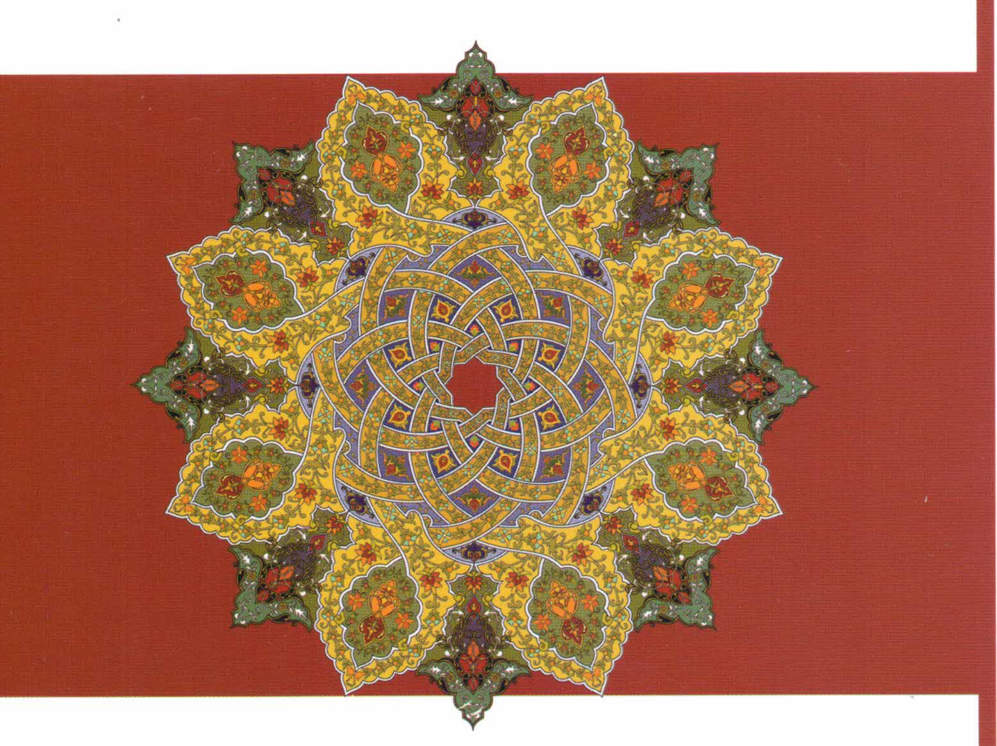


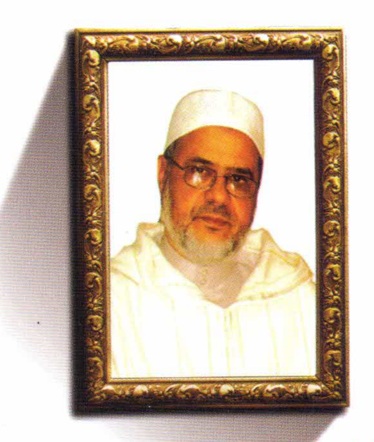
الأعمال الكاملة

دراسات في الأخلاق





أحمد الريسوني



الدكتور أحمد الريسوني

• ولد أحمد بن عبد السلام بن محمد الريسوني بقرية أولاد سلطان بإقليم العرائش، بشمال الغرب سنة 1953م
•تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمدينة القصر الكبير، وحصل فيها على شهادة الباكلوريا في الآداب العصرية.
•التحق لسنة واحدة بكل من كلية الحقوق (شعبة العلوم القانونية)، ثم لسنة أخرى بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (شعبة الفلسفة).
•التحق بكلية الشريعة بجامعة القرويين بفاس، وحصل منها على الإجازة العليا سنة 1978م.
•أتم دراساته العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة محمد الخامس) بالرباط، فحصل منها على:
❖شهادة الدراسات الجامعية العليا سنة 1986م.
❖دبلوم الدراسات العليا (ماجستير) في مقاصد الشريعة سنة 1989م.
❖دكتوراه الدولة في أصول الفقه سنة 1992م.

الأعمال المهنية:

•عمل محررا قضائيا بوزارة العدل (1973 . 1978) .
عين رئيسا للقسم الإداري بالمحكمة الابتدائية بمدينة سوق أربعاء الغرب (1976/1977)، ثم استقال منه.
•عمل أستاذا بالتعليم الثانوي الأصيل بثانوية الإمام مالك بمكناس (1978 . 1984)
•عمل أستاذا لعلم أصول الفقه ومقاصد الشريعة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس، وبدار الحديث الحسنية. بالرباط ، (1986 إلى سنة 2006)
•عمل بصفة خبير أول لدى مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة، منذ 2006 (مشروع معلمة زايد القواعد الفقهية والأصولية)
•عين نائبا لمدير المشروع... ثم مديرا له إلى نهايته سنة 2012.
• عمل أستاذا زائرا بجامعة زايد بالإمارات العربية، وبجامعة حمد بن خليفة بقطر.
•حاليا: مدير (مركز المقاصد للدراسات والبحوث) بالرباط.

الأنشطة العامة:

•عضو مؤسس للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وعضو بمجلس أمنائه.
• انتخب أول رئيس رابطة علماء أهل السنة.
•مستشار أكاديمي لدى المعهد العالمي للفكر الإسلامي،
•عضو هيئة التحرير بمجلة(إسلامية المعرفة). •
عضو برابطة علماء المغرب سابقا.
• مؤسس وأول رئيس للجمعية الإسلامية بالمغرب.
•مؤسس وأول أمين عام لجمعية خريجي الدراسات الإسلامية العليا بالمغرب.
•رئيس لرابطة المستقبل الإسلامي بالمغرب (1994-1996)
•رئيس لحركة التوحيد والإصلاح بالمغرب (1996-2003)
•المدير المسؤول لجريدة " التجديد " اليومية (2000-2004)
•شارك في تأسيس وتسيير عدد من الجمعيات العلمية والثقافية.
•أعد وقدم عددا من البرامج والحلقات التلفزيونية.

• العمل العلمي الجامعي:

•تدريس أصول الفقه ومقاصد الشريعة منذ سنة 1986.
•الإشراف على أزيد من مائة أطروحة دكتوراه ورسالة ماجستير في مختلف الجامعات المغربية.
•عضو مجلس الأمناء والمجلس العلمي لجامعة مكة المكرمة المفتوحة.
•الإشراف على العديد من الدورات العلمية المنهجية للباحثين في العلوم الشرعية.

المؤلفات المنشورة:

•نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (ترجم إلى الفارسية، والأردية، والإنجليزية، والبوسنية).
•نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية.
•من أعلام الفكر المقاصدي. • مقاصد المقاصد.
• مدخل إلى مقاصد الشريعة. •مقالات في الحرية.
•الفكر المقاصدي قواعده وفوائده. •الأمة هي الأصل.
•الاجتهاد: النص والمصلحة والواقع. • حكم الأغلبية.
•الشورى في معركة البناء. •أبحاث في الميدان.
• التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية ما له وما عليه.
•ما قل ودل، ومضات ونبضات (مجموعة مقالات).
•الوقف الإسلامي، مجالاته وأبعاده (نشرته منظمة الإيسيسكو وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية).
•علال الفاسي عالما ومفكرا.
•الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية (ترجم إلى الفرنسية).
•محاضرات في مقاصد الشريعة.
•الفكر الإسلامي وقضايانا السياسية المعاصرة.
•مراجعات ومدافعات (مجموعة مقالات).
•الحركة الإسلامية المغربية صعود أم أفول
•النظر المقاصدي في حكم تولي بعض الولايات العامة و المناصب المهمة.
•فقه الثورة مراجعات في الفقه السياسي الإسلامي .
•فقه الاحتجاج والتغيير.
•القواعد الأساس لعلم مقاصد الشريعة .
• التجديد والتجويد، تجديد الدين وتجويد التدين.
• دراسات في الأخلاق .
• الذريعة الي مقاصد الشريعة . .
• الجمع و التصنيف لمقاصد الشرع الحنيف

• وله بحوث كثيرة منشورة في المجلات العلمية، وضمن أعمال الندوات والمؤتمرات، ومقالات في الصحف والمواقع الإلكترونية.



دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر .القاهرة- المنصورة
ت : ٠٠٢٠١٠٠٩٧٠٧٤٩٥ & ٠٠٢٠١٠٦١٣٠٢٥٥٢
E-mail :daralkalema_pdp@hotmail.com
daralkalema.com



دراسات في الأخلاق

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م

بطاقة الفهرسة

الريسوني، أحمد

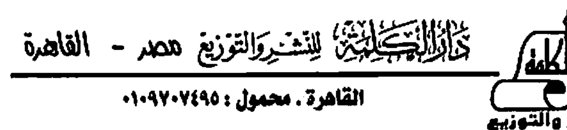
دراسات في الأخلاق / أحمد الريسوني

ط١. - المنصورة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م

٩٢ ص، ٢٤سم

رقم الإيداع: ٢٥٦٨/ ٢٠١٦

تدمك: ٦ - ٥٤٥ - ٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨



E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

دراسات في الأخلاق

أحمد الريسوني

دار الكلمة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

معنى
الخُـلُق والأخلاق

معنى الخُلق والأخلاق

الخُـلُق (بضمتين) جمعه أخلاق، ويقال أيضا: الـخُـلْق (بتسكين اللام)، وهـو يتعلق بالصفات المعنوية للإنسان، يقابله الـخَـلْق (بفتح اللام وسكون الخاء)، وهو يتعلق بالصفات المادية الحسية التي يخلق بها الإنسان.

قال الراغب الأصفهاني : «خُصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُق بالقُوَى والسجايا المدرَكة بالبدن»[1].

فالأخلاق هي: الصفات والسجايا النفسية المعنوية، التي تظهر، أو يظهر أثرها، من خلال السلوك العملي المستمر. فلا بد في الأخلاق من تحقق هذه العناصر الثلاثة: العنصر النفسي الباطني، والعنصر السلوكي العملي، وعنصر الانتظام والاعتياد.

فالعنصر النفسي يتضمن التحلي الباطني بالصفة الخُلقية والرضى بها.

والعنصر العملي، هو التعبير الفعلي عما تكنه النفس من تعلق وميل ورغبة في هذا الخلق أو ذاك.

وعنصر الاستمرار والاعتياد هو المعبر عن كون السلوك قد أصبح خلقا وسجية، وليس مجرد فلتة أو تصرف عابر.

فبدون رضى وتعلق نفسي، تكون الأخلاق مجرد تظاهر ونفاق وتصنع. وبدون الأثر العملي السلوكي،تبقى الأخلاق مجرد تمنيات أو شعارات أو دعاوى. وبدون تكرار واستمرار، يكون السلوك عرضيا عابرا، لا يشكل صفة ثابتة لدى صاحبه، فلا يعد خلقا له.

---

(١) المفردات ١/ ٢١٠.

والأخلاق إما حسنة نافعة محمودة، وإما سيئة ضارة مذمومة. ومصطلح (الأخلاق) يشمل حَسَنها وقبيحها معًا. إلا أنه إذا أُطلق بلا وصف ولا تقييد، فغالبا ما يراد به الأخلاق الحميدة والمطلوبة. فهذا هو المراد عادة إذا جرى الحديث عن الأخلاق، أو عن دور الأخلاق، أو أهمية الأخلاق، أو إذا قيل عن شخص ما بأنه ذو أخلاق، أو صاحب خلق. قال ابن عاشور: « الـخُلق: السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر، وتشمل طبائع الخير وطبائع الشر. ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يُضم إليه، فيقال: خُلُق حسن، وفي ضده خلق قبيح. فإذا أُطلق عن التقييد انصرف إلى الخلق الحسن»[(١)]

منابع الأخلاق والتخلق:

وللأخلاق مصادر ثلاثة تنبع منها وتتغذى بها، ويكمل بعضها بعضا، وهي:

أولها: الفطرة:

فالإنسان مجبول ومفطور على حب الأخلاق الحسنة وكره الأخلاق السيئة. ومهما اختلف الناس - أفرادا أو أمما - في تقييم بعض الأفعال وبعض التصرفات، فإن هناك فضائل وأخلاقا يشتركون جميعا في حبها واحترامها كالصدق والأمانة والوفاء والإحسان والتواضع والعدل...

وهناك رذائل وأخلاق سيئة يشترك الناس جميعا في كراهيتها واستهجانها، كالظلم والعدوان والكبر والكذب والخيانة والأثرة والغدر... فاشتراك الناس - بمختلف أجناسهم وأديانهم وأوطانهم وعصورهم وطبقاتهم وأحوالهم - في هذه الميول الخلقية، وتجذُّرُها في نفوسهم وسلوكهم، دليل واضح على فطريتها وأصالتها فيهم. فللإنسان حاسة خلقية تعمل مثل حواسه الأخرى. بل إن هذه الحاسة

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/ ١٧٦ - نشر دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس ١٩٩٧.

الخلقية تعتبر من الحواس المميزة للإنسان. ولذلك وُصف الإنسان بأنه كائن أخلاقي، أو حيوان أخلاقي.

ثانيها: الدين :

فمن المعلوم أن الأخلاق والتوجيهات الخلقية، هي الجزء الأعظم من جميع الأديان وتعاليمها.

وفي جميع العصور وجميع الأمم، نجد الأخلاق قرينةَ الدين والتدين، ونجد الدين والتراث الديني، يشكلان - دائما - أكبر مدد وأقوى سند للقيم الخلقية، وللمعايير الخلقية، وللممارسات الخلقية. فأهل الأخلاق، ودُعاة الأخلاق، وحُماة الأخلاق، هم عادةً الأنبياء وأتباع الأنبياء.

وإذا كانت الجِبِلّة هي منبع الأخلاق المفطورة، فإن الدين هو مصدر الأخلاق المسطورة. فلا نعرف خُلقا حسنا يتمسك الناس به أو يذكرونه ويتطلعون إليه، إلا وهو منصوص عليه في الدين وفي التراث الديني.

ثالثها: العرف الاجتماعي :

في كل مجتمع، تتشكل عبر العصور أعراف وقيم، تكون محل تراض وتوافق عام، ومحلَّ احترام والتزام، وتصبح جزءا من المنظومة الأخلاقية للمجتمع، ويصبح انتهاكها والاستخفاف بها سلوكا معيبا وربما معاقبا عليه. كما أن التمسك بها يكون خُلُقا محمودا ومقدرا. وهذه الأخلاق العُرفية والعادات الكريمة، يكون لها - في الأساس - استمدادٌ من المصدرين السابقين وتأثر بهما، ولكنها تستمد صِيَغَها العملية وتعبيراتها الظرفية، من الفكر والثقافة والتجربة البشرية. فهي - من هذه الناحية - تجسد الخصوصية الأخلاقية للأمم والشعوب ، وللعهود والأحقاب التاريخية. ولذلك نجدها أكثر قابلية للاختلاف والتمايز بين الأمم، وأكثر خضوعا للتغير عبر العصور، ولو بتدرج بطيء في الغالب.

ويُرجِع الماوردي تشَكُّل الأخلاق وانبثاقها إلى أصلين هما الطبع والتطبع؛ فالأخلاق «بعضها خُلق مطبوع، وبعضها خلق مصنوع؛ لأن الخلق طبع وغريزة، والتخلق تطبع وتكلف... فتصير الأخلاق نوعين: غريزية طُبع عليها، ومكتسبة تَطَبَّع بها»[١].

على أن الأخلاق بنوعيها لا تستغني عن الرعاية والصيانة والتوجيه. «قال بعض الحكماء: ليس شيء عولج إلا نفع وإن كان ضارا، ولا شيء أهمل إلا ضر وإن كان نافعا»[٢].

مكانة الأخلاق في الإسلام:

المكانة العظمى للأخلاق في الإسلام، تعد من أظهر معالمه وأبرز خصائصه.

فهي – أولا – ذات مكانة أساسية، بمعنى أن الأخلاق هي من جملة الأسس الأولى والمقاصد العليا، التي بني عليها الإسلام وشريعته.

وهي – ثانيا – تحتل مساحة شاسعة مِن مَصْدرَي الإسلام: القرآن والسنة. فحين نصنِّفُ الآيات والأحاديث حسب موضوعاتها، سنجد للموضوعات الأخلاقية نصيبا وافرا، إن لم يكن النصيب الأوفر.

وهي – ثالثا – ذات حضور وتأثير بليغين في كافة الجوانب الأخرى من الدين عقيدة وشريعة. فحتى الآيات والأحاديث المتعلقة بالعقائد أو بالأحكام أو بالقصص، نجدها مشبعة بالمعاني والتوجيهات الخلقية...

ومن أجود ما قيل في تفسير حسن الخلق، ما نقله البيهقي في الباب السابع والخمسين من (شعب الإيمان)، عن الإمام أحمد أنه قال: «ومعنى حسن الخلق:

---

(١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص٤ – نشر دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال.

وقد يكون ذلك في ذات الله تعالى، وقد يكون فيما بين الناس.

وهو في ذات الله ﷻ: أن يكون العبد منشرحَ الصدر بأوامر الله ونواهيه، يفعل ما فرض عليه، طيبَ النفس به، سلسا نحوه، وينتهي عما حرم عليه، واسعا به، غير متضجر منه، ويرغب في نوافل الخير، ويترك كثيرا من المباح لوجه الله تعالى، إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية من فعله، متبشرا لذلك غير ضجِر منه، ولا متعسر به.

وهو في المعاملات بين الناس: أن يكون سمحا بحقوقه لا يطالب غيره بها، ويوفي ما يجب لغيره عليه منها، فإن مرض فلم يُعَدْ، أو قَدِم من سفر فلم يُزَر، أو سَلّم فلم يُردّ عليه، أو ضاف فلم يكْرَم، أو شَفع فلم يُجَب، أو أحسن فلم يُشكَر، أو دخل على قوم فلم يُمَكّن، أو تكلم فلم ينصَت له، أو استأذن على صديق فلم يؤذن له، أو خطب فلم يزوّج، أو استمهل الدين فلم يمهَل، أو استنقص منه فلم يُنقَص، وما أشبه ذلك، لم يغضب، ولم يعاقب، ولم يتنكر من حاله حال، ولم يستشعر في نفسه أنه قد جُفي وأُوحِش، وأنه لا يقابِل كل ذلك إذا وجد السبيل إليه بمثله، بل يضمر أنه لا يعتد بشيء من ذلك، ويقابل كُلًّا منه بما هو أحسن وأفضل وأقرب إلى البر والتقوى، وأشبه بما يحمد ويرضى.

ثم يكون في إيفاء ما يكون عليه،كَهُوَ في حفظ ما يكون له، فإذا مرض أخوه المسلم عاده، وإن جاءه في شفاعة شفّعه، وإن استمهله في قضاء دين أمهله، وإن احتاج منه إلى معونة أعانه، وإن استسمحه في بيع سمح له، ولا ينظر إلى أن الذي يعامله كيف كانت معاملته إياه فيما خلا، أو كيف يعامل الناس، إنما يتخذ الأحسن إماما لنفسه، فينحو نحوه ولا يخالفه.

والخلق الحسن قد يكون غريزة، وقد يكون مكتسبا، وإنما يصح اكتسابه ممن كان

في غريزته أصل منه، فهو يضم بها اكتسبه إليه ما يتممه. ومعلوم في العادات أن ذا الرأي - بمجالسته أُولي الأحلامِ والنُّهَى - يزداد رأيا، وأن العالم يزداد بمخالطة العلماء علما، وكذلك الصالح والعاقل بمجالسة الصلحاء والعقلاء، فلا ينكَر أن يكون ذو الخلق الجميل يزداد حُسنَ خلقٍ بمجالسة أولي الأخلاق الحسنة، وبالله التوفيق».

الأخلاق والتشريعات:

الأخلاق في الإسلام لا يقف مدلولها ومفعولها عند السلوك الفردي وعند التعامل الاجتماعي المحدود، كما هو مدلول عبارة (حسن الخلق) المبيَّنُ آنفا، فحُسن الخلق - بهذا المعنى المتقدم - إنما هو جزء من مدلول الأخلاق ومفعولها. فالأخلاق في الإسلام ليست منحصرة في أبواب الآداب وحسن السلوك، وإنما هي سارية في جميع الأبواب وجميع الأحكام وجميع التكاليف الشرعية، من العقائد والعبادات والعادات والعقود والمعاملات والجنايات والعقوبات والسياسات... فكل ذلك مطبوع بطابع الأخلاق ومؤسس عليها ومحكوم بها.

ويوضح العلامة محمد الأمين الشنقيطي جوانب من ذلك بقوله: «والمتأمل للقرآن في هديه، يجد مبدأ الأخلاق في كل تشريع فيه، حتى العبادات:

- ففي الصلاة خشوع وخضوع، وسكينة ووقار، فأْتُوها وعليكم السكينة والوقار.

-وفي الزكاة مروءة وكرم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

- وفي الصيام: «من لم يدَعْ قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، وقوله ﷺ: «الصوم جُنَّة».

- وفي الحج: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]..

- وفي الاجتماعيات: خوطب ﷺ بأعلى درجات الأخلاق، حتى ولو لم يكن

داخلا تحت الخطاب، لأنه ليس خارجا عن نطاق الطلب :﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ثم يأتي بعدها: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[الإسراء:٢٤]، مع أن والديه لم يكن أحدهما موجودًا عند نزولها، إلى غير ذلك من التعاليم العامة والخاصة التي اشتمل عليها القرآن.

وقد عني ﷺ بالأخلاق، حتى كان يوصي بها المبعوثين في كل مكان، كما أوصى معاذ بن جبل ﷺ بقوله: «**اتق الله حيثما كنت، وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالق الناس بخلق حسن**».

وقال ﷺ: «**إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»، أي إن الحياء، وهو من أخص الأخلاق، سياج من الرذائل، وهذا مما يؤكد أن الخلق الحسن يحمل على الفضائل ويمنع من الرذائل .

وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾
[آل عمران:١٣٤]

وإن من أهم قضايا الأخلاق بيانه ﷺ بقوله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، مع أن بعثته بالتوحيد والعبادات والمعاملات وغير ذلك، مما يجعل الأخلاق هي البعثة.

ومما يؤكد كون الأخلاق هي الأسس والقواعد الأولى للتشريع الإسلامي، ما ثبت من أن أوائل الأوامر والنواهي التي أنزلت وتلقاها الصحابة عن رسول الله ﷺ مع توحيد الله وعبادته، إنما كانت أوامرَ ونواهيَ خلقية. ففي الحوار المعروف الذي جرى بين هرقل و أبي سفيان حول بعثة النبي ﷺ قال هرقل : ماذا يأمركم؟ قال أبو

سفيان : «يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصدق، والعفاف، والصلة...».

وفي حديث أم سلمة الطويل حول لقاء المسلمين المهاجرين بنجاشي الحبشة، قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: «وأَمَرَنا - أي رسول الله ﷺ - بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قال: فعدد عليه أمور الإسلام... »[1].

وهكذا يبدو جليا أن شريعة الإسلام أُسُسها أخلاق ومقاصدها أخلاق. فلذلك لا نعدو الحقيقة إذا وصفناها بأنها «شريعة الأخلاق»، وإذا قلنا: إن كل تشريع يُستمد ويُستنبط منها ومن أصولها، يجب أن يكون مبنيا على هذه الصفة ومراعيا لها.

التكامل بين الوظيفتين الخلقية والتشريعية :

وظيفة الأخلاق في علاقتها بالتشريع، لا تقف عند كونها مصدرا ومعيارا وهدفا للتشريعات والأحكام القانونية والقضائية، بل هي ذات وظيفة عملية متلاحمة ومتكاملة مع وظيفة التشريع والقضاء. وفي كثير من الحالات، تشكل الأخلاق البديل الأرقى الأمثل عن القوانين والأحكام القضائية والتدابير السلطانية. فحيثما سادت مكارم الأخلاق وقوي تأثيرها، قَلَّت الخصومات والمنازعات، وقلت الانحرافات والجنايات. وحتى ما ينفلت ويقع منها تتأتى معالجته وتجاوزه بيسر، ودونها حاجة إلى شَغل الولاة والقضاة والشُّرَطِ به. وحتى في

---

(١) أضواء البيان ٨/ ٢٤٩-٢٥٠. دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

حال الاحتكام إلى التشريعات والمحاكم، فإن الفرق يكون كبيرًا بين التقاضي المصحوب بالأخلاق الحميدة، أو ببعض منها، والتقاضي المتجرد منها، فضلا عن التقاضي المتسلح بمساوئها ورذائلها، كالحقد والمكر والتزوير وسوء الظن والإفراط في العداوة والانتقام... ولذلك كان من علامات المنافق، أنه «**إذا خاصم فجر**»، كما جاء في الحديث المتفق عليه عَنْ النبي ﷺ قَالَ: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقا أو كانت فيه خصلة من أربعة كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر،وإذا خاصم فجر**». ومعنى هذا أن المؤمن صاحب الخلق، حتى إذا تنازع أو تخاصم، ظل معتدلا ومؤدبا في خصومته.

وفي الحديث الآخر - عند الإمام البخاري - قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلا سمحا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**» وفي رواية: «**إن الله يحب سمح البيع سمح الشراء سمح القضاء**». وفي رواية أخرى: «**أفضل المؤمنين رجل سمْحُ البيع، سمح الشراء، سمح القضاء، سمح الاقتضاء**».

وفي مسند الإمام أحمد عن أنس ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من منعك، وتصفح عمن شتمك**».

وعن أنس أيضا قال: ما رأيت النبي ﷺ رُفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو.

وفي سنن ابن ماجة، عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**».

فمتى تعامل الناس بمثل هذه الأخلاق، قلَّتْ حاجتهم إلى الولاة والقضاة والمفتين والمتشرعين، وربحوا طمأنينتهم وسعادتهم وأخوتهم، ووفروا أموالهم وأوقاتهم وصراعاتهم، واستراحوا وأراحوا غيرهم.

مصادر الالتزام والإلزام الخلقي:

المصادر الداعية إلى حفظ الأخلاق واحترامها، والباعثة على الالتزام بها، متعددة ومتنوعة. وهذا يتناسب مع ما لها من مكانة وأهمية، فحتى إذا تعطل وفُقِد بعض البواعث والمصادر، اشتغلت بواعث ومصادر أخرى.

وعموما، يمكن التمييز بين أربعة مصادر: اثنان يصدر عنهما الالتزام الذاتي الطوعي، واثنان يصدر عنهما الإلزام الخارجي.

- الالتزام الذاتي :

وهو الذي ينشئ التحلي الطوعي والتعلق الإرادي بالأخلاق، بحكم الأصالة الفطرية المائلة إلى حب الخير والإحسان ومكارم الأخلاق، وكراهية الشر والقبح والرذالة. فحب محاسن الأخلاق وكراهية مساوئها، هو شيء فطري متأصل في النفس الإنسانية. قال ابن القيم : «فإن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل والعفة والإحسان ومقابلة النعم بالشكر، وفطرهم على استقباح أضدادها»[١].

فبفضل هذا المصدر يصبح الالتزام بالخلق نزوعا ذاتيا داخليا، تحبه النفس وتطمئن به وترتاح إليه. وهذا هو أكثر ما ينطبق عليه قول مسكويه، في تعريفه للخلق بأنه: «حالٌ للنفس داعية لها إلى أفعالها، من غير فكر ولا روية»[٢] .

- الالتزام الديني :

وهو أيضا ينشئ التزاما إراديا طوعيا بالأخلاق. ولكن هذا الالتزام ينبع من الإيمان بالله ومحبته، والإيمان بالخيرية والصلاحية لكل ما يأتينا منه سبحانه. ويتعزز

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٢٤٥ - نشر دار الكتاب العربي بيروت - الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص٣٠ .

هذا الإيمان وهذا الالتزام بالإدراك والمعاينة لما للأخلاق من آثار ونتائج طيبة ملموسة. وهذا المصدر يتكامل مع المصدر الأول فيغذيه ويقويه، ويرتقي بالإنسان مرتقى أعلى وأسمى. وقد يأتيه بما لا تميل إليه نفسه ولا يهواه طبعه، من معالي الأخلاق ومكارمها، ولكنه مع ذلك يلتزم به عن طواعية وإيمان واحتساب.

فالإيمان ينقل صاحبه إلى محبة صفات ربما لم تكن محبوبة- أو كانت باهتة ضعيفة - في طبعه وميله، ويدعوه إلى نبذ صفات ربما يهواها ويميل إليها. وهذا الارتقاء يحتاج عادة إلى عزم وجهد، حتى يصبح خلقا وسجية. وعلى هذا الصنف من الأخلاق ينطبق قول مسكويه : «ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولا فأولا، حتى يصير ملَكة وخلقا»[1].

- **الإلزام الاجتماعي :**

فهو مصدر إلزام أكثر مما هو مصدر التزام. والمقصود به ما للمجتمع من سلطة معنوية تضغط وتحث - بأشكال مختلفة - من أجل الالتزام بالأخلاق والقيم السائدة فيه، وعدمِ مخالفتها. ومفهوم المجتمع هنا يبدأ بالأسرة والأقارب والجيران وزملاء المهنة، ويتسع حتى يشمل القبيلة والمدينة والقطر والأمة. وقد أقر الإسلام السلطة الأخلاقية للمجتمع وعززها وضبط حدودها بفريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). وهي فريضة كبرى حظيت بعناية واسعة في القرآن والسنة. فهي تتيح لعموم الناس الإسهام في تقوية سلطة المجتمع وفاعليته، كما تتيح ظهور مؤسسات مجتمعية، ومبادرات فردية وجماعية، يكون من وظائفها وآثارها تعزيز أخلاق المجتمع وقيمه وحمايتُها، لكن في حدود تحقيق ما هو معروف وتغييرِ ما هو منكر.

- **الإلزام السلطاني :**

ونعني به ما يصدر عن سلطة الدولة ومؤسساتها ووسائلها التشريعية

---

(١) المرجع نفسه.

والقضائية والتنفيذية. فمن صلاحيات الدولة - بل من واجباتها - تعزيز أخلاق المجتمع وقيمه، ومساعدة الناس على الالتزام بها.

وقد تقدمت الإشارة إلى الطابع الأخلاقي والمقصد الأخلاقي لعدد من العقوبات المنصوصة في الإسلام. وعلى هذا المنوال، فإن العقوبات الاجتهادية المسماة بالتعازير، يمكن أن تشمل أي تصرف مشين يلحق ضررا أو فسادا ماديا أو معنويا، بالأفراد والمجتمع، إذا لم تنفع مع صاحبه المصادر السابقة للالتزام والإلزام. ولكن في جميع الأحوال فإن قدرا غير يسير من المساحة الأخلاقية، يبقى غير قابل أو غير مناسب للتدخل والإلزام الخارجي، وخاصة منه التدخل السلطاني، ويكون المعول فيه ضمائر الناس، وعلى التربية والتثقيف.

فالأصل في الأخلاق أن قوامها ودوامها يعتمدان أساسا على الالتزام الذاتي، الطوعي الاختياري، المعزز بالتوعية والتربية، والمحصَّن باليقظة والحماية الاجتماعية. ولكن عند الضرورة - وفي حدود معينة - يُؤتَى بالوازع السلطاني، وتتدخل التدابير التشريعية والقضائية الإلزامية، عملا بقاعدة: «**تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور**»، وقاعدة: «**إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**»، وهما قاعدتان مرويتان عن عمر بن عبد العزيز ﷺ.

فالخلاصة أن حفظ الأخلاق في النظام الإسلامي هو تعبد وتدين قبل كل شيء، ولذلك يعوَّل فيه أولًا على البواعث الذاتية والمبادرات الطوعية، ولكنه- لأهميته وضرورته - لم يترك كلية لضمائر الأفراد ونوازعهم الفطرية، ولم يقتصر فيه على المساعدة الوعظية التوجيهية، وإنما يعول فيه أيضا على المسؤولية التضامنية للمجتمعات والجماعات: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١]. فإن بقي بعد ذلك نقص، أو حصل ضرر، أو لاح خطر، «**فالسلطان ولي من لا ولي له**»، بمعنى أن السلطة العامة - أي الدولة - تتولى معالجة كل ما فرط الناس فيه أو عجزوا عنه، وخاصة درء المفاسد والأضرار

والأخطار، وفي مقدمة ذلك ما يصيب عموم المجتمع في دينه وأمنه وأخلاقه.

فمن وظائف الدولة وواجباتها اتخاذ ما لا بد منه من التدابير الإلزامية والعقوبات الزجرية، لصيانة الأخلاق والقيم العليا للمجتمع. وباب التعازير هو أحد الأبواب التي تسمح بمعالجة هذا الأمر.

*****

الأخلاق والتشريع في القرآن الكريم

الأخلاق والتشريع في القرآن الكريم

مكانة الأخلاق في الإسلام:

الباحث عن مكانة «الأخلاق في الإسلام»، إذا ألَـمَّ بشيء من القرآن والسنة النبوية، فإنه لا يحتاج إلى كبير جهد أو كثير عناء ليتبين له أن الأخلاق في الإسلام هي أساس أسسه، وجماع مقاصده، وروح شرائعه.

وهذا ما جاء صريحا في قول رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1]، وفي لفظ: «**إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»[2]. ويروى أيضا بلفظ «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**».

فمقاصد البعثة المحمدية مجموعة ومنحصرة في خدمة محاسن الأخلاق والبلوغ بها إلى أقصى تمامها وأعلى درجاتها. ومعنى هذا أن كل ما بُعث به وبعث له نبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - إنما هو وجه من وجوه الأخلاق والتخليق، أو هو وسيلة إلى ذلك. فالإيمان خلق وتخلق، والعبادة خلق وتخلق، وأحكام العادات والمعاملات أخلاق وتخلق...، بل القرآن كله والإسلام كله عبارة عن أخلاق وتخليق. روى البيهقي عن كعب بن مالك : »أن رجلا من بني سلمة سأل رسولَ الله ﷺ عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**حُسن الخلق**». ثم راجعه الرجل، فلم يزل رسول الله ﷺ يقول: «**حسن الخلق**»، حتى بلغ خمس مرات»[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الحاكم في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ، بلاغا. قال الحافظ ابن عبد البر في التمهيد: «وهذا الحديث يتصل من طرق صحاح، عن أبي هريرة وغيره، عن النبي ﷺ».

(٣) شعب الإيمان (٦/ ٢٤٢).

وهذا ما عبر عنه بعض العلماء بقولهم: «الدين كله خلق؛ فمن زاد عليك في الخلق: زاد عليك في الدين»[١].

بل إن الإيمان نفسه هو ثمرة التَخَلُّق بخلق الاعتراف بالحق والاستجابة لنداء الحقيقة، فهو عدل في الفكر وتواضع في النفس واستقامة في الفعل، كما قال تعالى عن طائفة من أهل الكتاب الصادقين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤]..

والكفر أيضا منشؤه أخلاقي، أي من سوء الخلق؛ ولذلك عُدَّ الكافرُ جاحدا ظالما متكبرا، كما صرحت بذلك الآيات العديدة، كقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦]، وقوله عن فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠]..

ولذلك اعتبر ابنُ القيم أن «أَرْكَان الْكفْر أَرْبَعَة: الْكبر والحسد وَالْغَضَب والشهوة. فالكبر يمنعهُ (أي يمنع صاحبه) الانقيادَ، والحسدُ يمنعهُ قبُولَ النَّصِيحَة وبذلَها، وَالْغَضَبُ يمنعهُ الْعدْل، والشهوةُ تمنعهُ التفرّغ لِلْعِبَادَةِ»[٢]. فالعناصر الكونة للكفر والمغذية له إنما هي صفات خُلقية.

---

(١) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية (٢/ ٢٩٤) نشر دار الكتاب العربي ببيروت - الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

(٢) الفوائد ١٥٧ - نشر دار الكتب العلمية ببيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.

فإذا كان القرآن يُثبّت الإيمان، فهو يُثبت أيضا أخلاق الإيمان، وإذا كان يعالج آفة الكفر، فهو يعالج أيضا أخلاق الكفر.

وأيضا: «فإن أصل العبادة نفسَه، قائم على أساس خلقي، هو الاعتراف بالفضل والنعمة وشكرُ المنعم المتفضل، وعلى أساس: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٦٠،٦١].. وبناء على هذا تكون العبادات والطاعات كلها، عبارةً عن تجليات لخُلق الشكر، وللعمل بمقتضى الشكر، أي أن العبادات في أساسها وجوهرها، إنما هي أخلاق وأفعال أخلاقية...»[(١)].

وهنا نحتاج أن نقف قليلا مع جواب أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ حين سئلت عن أخلاق النبي ﷺ فقالت: «كان خُلقه القرآن، أمَا تقرأ القرآن، قولَ الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾»[(٢)].

وروى الإمام الطبري بسنده.. «أن سعيدَ بنَ هشام سأل عائشةَ عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قال: قلت: بلى، قالت: فإن خُلُق رسول الله ﷺ كان القرآن»[(٣)].

فالخُلق العظيم بتمامه وكماله إنما هو الامتثال والتمثل لما في القرآن. وما في القرآن إنما هو أخلاق وتخلقات، وإن عُبر عنها بتعبيرات مختلفة؛ كالعقائد والتكاليف والآداب.

---

(١) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية ٣/ ٣٠. الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م

(٢) مسند الإمام أحمد.

(٣) جامع البيان، بتحقيق أحمد شاكر (٢٣/ ٥٢٩) نشر مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

ولذلك فسروا «الخُلق العظيم» في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، بأنه هو الإسلام وهو القرآن لا أقل ولا أكثر. قال الطبري: «يقول تعالى ذكرُه لنبيه محمدﷺ: وإنك يا محمد لعلَى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهلُ التأويل...»[١].

وها هو الدكتور محمد عابد الجابري - الدارس الموسوعي للثقافة العربية والفلسفة الإسلامية - يقرر أن «القرآن الكريم هو كتاب أخلاق قبل كل شيء، فضلا عن كونه محورَ ما نسميه بالموروث الإسلامي الخالص»[٢].

*****

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٢٨).

(٢) العقل الأخلاقي العربي، ٥٣٥ – نشر مركز دراسات الوحدة العربية بلبنان – الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

المنظومة الأخلاقية
والمنظومة التشريعية
في الإسلام

المنظومة الأخلاقية والمنظومة التشريعية في الإسلام

أولا: الأخلاق الإسلامية:

أوضحتُ في المقدمة أن الأخلاق في الإسلام عامةً، وفي القرآن خاصةً، مبثوثةٌ وحاضرة في كل جنباته: أصولها وفروعها، كلياتها وجزئياتها، مقاصدها ووسائلها، مأموراتها ومنهياتها، فرائضها وفضائلها...

ولذلك فإن ما تخصصه عادةً كتبُ الحديث الشريف من أبواب لحسن الخلق، وكذلك ما جمعَتْه وشرحته بعض الكتب من محاسن الأخلاق والشمائل، ومساوئ الأخلاق والرذائل، وكذلك الدراسات الأخلاقية القديمة والحديثة، لا تتناول في الغالب إلا ما كان ظاهرا وصريحا ومباشرا في هذا الباب. أما الأخلاق المفصلة الكاملة فأوسع من أن تُستقصَى وتُجمع، لكونها ثاويةً في كل المعاني والمباني الإسلامية. وإذا نظرنا - مثلا - إلى عمل الدكتور محمد عبد الله دراز وحده، وهو عبارة عن أطروحة جامعية محدودة، فسنجد أنه - لكي يبرز لنا (دستور الأخلاق في القرآن) - كاد أن يسرد لنا القرآن كله ويقول: تلكم هي المنظومة الأخلاقية في القرآن الكريم[1].

فلم يبق أمام بحث قصير محدود - كهذا - سوى الاقتصار على إيراد بعض التعبيرات الجامعة لقسمات المنظومة الأخلاقية ومناحيها وتوجهاتها في القرآن الكريم خاصة، وفي الإسلام عامة.

---

(١) انظر على سبيل المثال سرده المتواصل للآيات المتعلقة بالأخلاق العملية، على مدى الصفحات من ٦٩١ إلى ٧٧٨ - تعريب عبد الصبور شاهين - نشر مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية - د.ت.

على أن تقديم صورة مركبة ومركزة للمنظومة الأخلاقية الإسلامية لا ينبغي أن يقتصر ولا أن يعتمد كثيرا على ما صاغه الفلاسفة الإسلاميون قديما، أو بعض أساتذة الفلسفة حديثا؛ لأن هؤلاء في الغالب ينطلقون من التراث الفلسفي اليوناني القديم، أو الأوروبي الحديث. وبعض المتقدمين ينتقون من الحكَم والآداب الفارسية والهندية ما لذ طَعمه وطاب ريحه... ثم يمزجون ذلك بجملة من الآيات والأحاديث والآثار الإسلامية. ولذلك قلما تجد عندهم الصورة الكاملة ولا الخالصة للمنظومة الأخلاقية الإسلامية. وقد سعى الدكتور محمد عابد الجابري جاهدا إلى وضع اليد على ما يمثل حقيقةً «الأخلاقَ الإسلامية الحقيقية»، فأطال التطواف والترحال والبحث والفحص، إلى أن حط رحاله ووجد بعض ضالته عند الإمام عز الدين بن عبد السلام وكتابيه (قواعد الأحكام) و(شجرة المعارف والأحوال).

وخلافا للدكتور محمد عبد الله دراز الذي توصل إلى أن خلق «التقوى» هو الخلق المركزي والجوهري في المنظومة الأخلاقية الإسلامية[١]، فإن الجابري - وبناء على قراءته لعز الدين بن عبد السلام - انتهى إلى أن القيمة الأساسية للأخلاق الإسلامية تتمثل في «العمل الصالح»، أو «أخلاق العمل الصالح»[٢].

والذي يظهر بوضوح ويسر من قراءة كتاب (شجرة المعارف والأحوال) لابن عبد السلام، هو أن جوهر الأخلاق الإسلامية ومحركَها ومعيارَها عنده هو عنصر «الإحسان». وهذا - في الحقيقة - ليس ببعيد عما قرره الجابري، بل يكاد يكون هو هو، ولكن الدقة والمطابقة لما في الكتاب تقتضيان القول - بدون تردد - بأن مضمون الكتاب كله مَبنيٌّ على عنصر الإحسان ومصطلح الإحسان، وأن ذلك

(١) انظر: دستور الأخلاق في القرآن،٦٨١.

(٢) انظر الفصل الثالث والعشرين من كتابه (العقل الأخلاقي العربي)، وهو بعنوان: «في الإسلام: المصلحة أساس الأخلاق والسياسة».

ليس منحصرا في كون «العز بن عبد السلام يخص الإحسانَ باهتمام خاص (١٦٠ صفحة)، فيصنفه أصنافا...»[١].

فابن عبد السلام منذ بداية الكتاب يقول: «وبعد، فإن الله فضل الإنسان بالنطق والبيان، والعقل والعرفان، ثم أدبه بالقرآن، وأمره بكل بر وإحسان...»[٢]. ثم يضيف: «فانحصر الإحسان في جلب المصالح الخالصة أو الراجحة، وفي دفع المفاسد الخالصة، وانحصرت الإساءة[٣] في جلب المفاسد الخالصة أو الراجحة، وفي دفع المصالح الخالصة والراجحة[٤]».

وقد جعل الباب الثاني «في التخلق بصفات الرحمن على حسب الإمكان»، وختمه ولخصه بالقول: «من أفضل التخلقات أن تحسن إلى عباد الله بمثل ما أَحسن به إليك، وأن تُنعم عليهم بمثل ما أَنعم به عليك. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:٩، ١٠]، أي: عاملِ السائلَ بمثل ما عاملناك، فإنا وجدناك عائلا فأغنيناك، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، أي: حدثهم بما أنعمنا به عليك من هدايتنا، فإنا وجدناك ضالا فهديناك»[٥]

وأما الباب السابع فهو «في الإحسان العام...».

وقد بدأه بالقول: «كل من أطاع الله فهو محسن إلى نفسه بطاعته، فإن كان في

---

(١) العقل الأخلاقي العربي، ٦٠٩.

(٢) شجرة المعارف والأحوال، ١١.

(٣) التي هي ضدُّ الإحسان. وعلى هذا الأساس، ولكون تَوَقي الإساءة هو نوع من الإحسان، اعتنى الإمام بشتى أنواع الإساءات الظاهرة والباطنة، وخصص لها البابين السادس والرابع عشر. فحديثه عن الإساءة هو حديث عن وجه من وجوه الإحسان.

(٤) شجرة المعارف والأحوال، ١٢-١٣.

(٥) شجرة المعارف والأحوال، ٤٢.

طاعته نفعٌ لغيره فهو محسن إلى نفسه وإلى غيره. وإحسانه إلى غيره قد يكون عاما وقد يكون خاصا. والإحسان عبارة عن جلب مصالح الدارين أو إحداهما،، ودفع مفاسدهما أو إحداهما...»[(١)].

وأما الباب الثامن فجعله «في ضروب الإحسان المذكور في كتب الفقه».

يليه الباب التاسع، وهو «في الإحسان بإسقاط الحقوق»،

فالباب العاشر، «في الإحسان ببذل الأموال»،

ثم الباب الحادي عشر «في الإحسان بالأخلاق والأعمال»،

والباب الثاني عشر «في الإحسان بالأقوال»،

والباب الثالث عشر «في الإحسان بالدعاء القاصر والمتعدي»،

ثم يأتي الباب السابع عشر بعنوان «في الإحسان المتعلق بالجهاد»،

وحتى حين تخلو عناوين بعض الأبواب من كلمة «الإحسان»، فإننا نجدها بكثافة في عناوين الفصول، فضلا عن تفاصيلها.

ومن الواضح أن ابن عبد السلام قد جعل من كتابه هذا تشجيرا بيانيا للآية الكريمة ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]..

وهي الآية التي قال عنها الحافظ ابن عبد البر: «وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق، قولُه ﷻ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ...﴾...»[(٢)].

---

(١) نفسه، ص١١٢.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (٢٤/ ٤٦٣ - ٣٣٤)- نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية - ١٣٨٧هـ.

نماذج أخرى لتحديد أمهات الأخلاق الإسلامية :

- استقصاء الشاطبي :

نص الشاطبي مرارا على أن معظم ما نزل من القرآن الكريم في العهد المكي كان من الأصول الكلية ذات الطبيعة الأخلاقية، ثم نزلت مكملات لها في العهد المدني. وميزة الشاطبي أنه حين يذكر هذه المبادئ الأخلاقية، فإنه يذكرها باعتبارها شرائع كلية وأصولا تشريعية، وليس باعتبارها مجرد مواعظ ورقائق وآداب.

فمما ذكره من ذلك: أن الله تعالى «أمر بمكارم الأخلاق كلها؛ كالعدل والإحسان، والوفاء بالعهد، وأخذ العفو، والإعراض عن الجاهل، والدفع بالتي هي أحسن، والخوف من الله وحده، والصبر والشكر ونحوها. ونهى عن مساوئ الأخلاق؛ من الفحشاء والمنكر والبغي، والقول بغير علم، والتطفيف في المكيال والميزان، والفساد في الأرض، والزنى والقتل والوأد، وغير ذلك مما كان سائرا في دين الجاهلية. وإنما كانت الجزئيات المشروعات بمكة قليلة والأصول الكلية كانت في النزول والتشريع أكثر.

ثم لما خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المدينة واتسعت خطة الإسلام، كملت هنالك الأصول الكلية على تدريج؛ كإصلاح ذات البين، والوفاء بالعقود، وتحريم المسكرات، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية، وما يكملها ويحسنها، ورفع الحرج بالتخفيفات والرخص، وما أشبه ذلك كله، تكميلا للأصول الكلية»[1].

وفي سياق آخر تطرق الشاطبي إلى هذه الكليات القرآنية، الأخلاقية التشريعية، فعددها بمزيد من الاستقصاء والتفصيل، فقال: «كالعدل والإحسان، والوفاء

(١) الموافقات ٣/ ١٠٣، بتحقيق الشيخ دراز - نشر دار المعرفة بيروت - د ت.

بالعهد، وأخذ العفو من الأخلاق، والإعراض عن الجاهل، والصبر، والشكر، ومواساة ذي القربى والمساكين والفقراء، والاقتصاد في الإنفاق والإمساك، والدفع بالتي هي أحسن، والخوف، والرجاء، والانقطاع إلى الله، والتوفية في الكيل والميزان، واتّباع الصراط المستقيم، والذكر لله، وعمل الصالحات، والاستقامة، والاستجابة لله، والخشية، والصفح، وخفض الجناح للمؤمنين، والدعاء إلى سبيل الله، والدعاء للمؤمنين، والإخلاص، والتفويض، والإعراض عن اللغو، وحفظ الأمانة، وقيام الليل، والدعاء، والتضرع، والتوكل، والزهد في الدنيا، وابتغاء الآخرة، والإنابة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتقوى، والتواضع، والافتقار إلى الله، والتزكية، والحكم بالحق، واتباع الأحسن، والتوبة، والإشفاق، والقيام بالشهادة، والاستعاذة عند نزغ الشيطان، والتبتل، وهجر الجاهلين، وتعظيم الله، والتذكر، والتحدث بالنعم، وتلاوة القرآن، والتعاون على الحق، والرهبة، والرغبة، وكذلك الصدق، والمراقبة، وقول المعروف، والمسارعة إلى الخيرات، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والرجوع إلى الله ورسوله عند التنازع، والتسليم لأمر الله، والتثبت في الأمور، والصمت، والاعتصام بالله، وإصلاح ذات البين، والإخبات، والمحبة لله، والشدة على الكفار[1]، والرحمة للمؤمنين، والصدقة. هذا كله في المأمورات.

وأما المنهيات: فالظلم، والفحش، وأكل مال اليتيم، واتّباع السبل المضلة، والإسراف، والإقتار، والإثم، والغفلة، والاستكبار، والرضى بالدنيا من الآخرة، والأمن من مكر الله، والتفرق في الأهواء شيعا، والبغي، واليأس من رَوْح الله،

---

(١) هذا في أثناء الحرب والقتال ومقارعة البغي والعدوان، أما في غير ذلك من المعاملات المدنية والعلاقات العادية، فالأصل هو البر والإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]..

وكفر النعمة، والفرح بالدنيا، والفخر بها، والحب لها، ونقص المكيال والميزان، والإفساد في الأرض، واتباع الآباء من غير نظر، والطغيان، والركون للظالمين، والإعراض عن الذكر، ونقض العهد، والمنكر، وعقوق الوالدين، والتبذير، واتباع الظنون، والمشي في الأرض مرحا، وطاعة من اتبع هواه، والإشراك في العبادة، واتباع الشهوات، والصد عن سبيل الله، والإجرام، ولهو القلب، والعدوان، وشهادة الزور، والكذب، والغلو في الدين، والقنوط، والخيلاء، والاغترار بالدنيا، واتباع الهوى، والتكلف، والاستهزاء بآيات الله، والاستعجال، وتزكية النفس، والنميمة، والشح، والهلع، والضجر، والمن، والبخل، والهمز، واللمز، والسهو عن الصلاة، والرياء، ومنع المَرافق، وكذلك اشتراء الثمن القليل بآيات الله، ولبس الحق بالباطل، وكتم العلم، وقسوة القلب، واتباع خطوات الشيطان، والإلقاء باليد إلى التهلكة، وإتْبَاع الصدقة بالمن والأذى، واتّباع المتشابه، واتخاذ الكافرين أولياء، وحب الحمد بما لم يفعل، والحسد، والترفع عن حكم الله، والرضى بحكم الطاغوت، والوهن للأعداء، والخيانة، ورمي البريء بالذنب وهو البهتان، ومُشاقّة الله والرسول، واتباع غير سبيل المؤمنين، والميل عن الصراط المستقيم، والجهر بالسوء من القول، والتعاون على الإثم والعدوان، والحكم بغير ما أنزل الله، والارتشاء على إبطال الأحكام، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، ونسيان الله، والنفاق، وعبادة الله على حرف، والظن، والتجسس، والغيبة، والحلف الكاذبة، وما أشبه ذلك من الأمور...»[1].

- **الأخلاق المشتركة بين الأنبياء في نظر ابن العربي:**

عند تفسير قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]،

(١) الموافقات ٣/ ١٣٥- ١٣٧.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: «المعنى: ووصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، والتزلف بما يرُدُّ القلبَ والجارحة إليه، والصدقُ، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر، والقتل، والإذاية للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوانات كيفما كان،(٢) واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات.. فهذا كله شُرِعَ دينا واحدًا وملة متحدة، لم يَختلف على ألسنة الأنبياء»[1].

- ومن المعاصرين:

- عملَ الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتابه **(الأخلاق الإسلامية وأسسها)** على استقراء الصفات الخلقية المحمودة في الإسلام، وإرجاعِها إلى أصول كلية جامعة لها، وانتهى إلى حصر تلك الأصول في أحد عشر أصلا هي:

الأصل الأول: حب الحق وإيثاره.

الأصل الثاني: الرحمة.

الأصل الثالث: المحبة.

الأصل الرابع: الدافع الاجتماعي.

الأصل الخامس: قوة الإرادة.

الأصل السادس: الصبر.

الأصل السابع: حب العطاء.

---

(١) أحكام القرآن ٤/ ٨٩ – ٩٠ – نشر دار الكتب العلمية ببيروت – الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣.

الأصل الثامن: علُوُّ الهمة.

الأصل التاسع: سماحة النفس.

وهذه الأصول التي ترجع إليها وتنضوي تحتها المفردات التفصيلية لمكارم الأخلاق، لها أضدادٌ ترجع إليها المفردات التفصيلية للرذائل والنقائص الخلقية...»[1].

وبعد هذه الأصول التسعة، التي خصص لدراستها تسعة فصول، أضاف في فصل عاشر أصلين آخرين، اعتبرهما منبثقين عن « أكثر من أساس خلقي»، وهما:

العفة (مع ضدها)،

والشجاعة (مع ضدها)[2].

- ومن أحدث التصنيفات الكلية لأصول الأخلاق الإسلامية وأمهاتها، ما تضمنه المجلد الثالث من (معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية). وقد جَمعت هذه الأصولَ الأمهات في عشرة أصول هي:

١- الرحمة . ٢- الاستقامة .

٣- التقوى . ٤- الشكر .

٥- الصبر . ٦- الصدق .

٧- العدل . ٨- العفة .

٩- الوفاء . ١٠- السماحة .

فعن هذه الأصول العشرة ينبثق معظم المنظومة الأخلاقية في الإسلام، وفي

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، ١/ ٥١٧ - نشر دار القلم بدمشق - الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٢) المرجع السابق، ٢/ ٥٨١ .

أضدادها تتجسد الأخلاق المذمومة المنهي عنها، وعن الجميع تنبثق تشريعات إسلامية لا حصر لها...

ثانيا: المنظومة التشريعية:

التشريع مصدر «شرَّع» الرباعي. وأصله شَرَعَ يَشْرَع شرعا وشِرْعَة وشريعة.

وبتتبع الاستعمالات القديمة والحديثة لمصطلح «التشريع» في الثقافة الإسلامية، نجد أنه يستعمل على مستويات عديدة وبمعان متفاوتة، وإن رجعت كلها إلى أصل واحد.

فهو مستعمل:

١- بمعنى: كل ما شرعه الله تعالى لعباده، من معتقدات وعبادات وآداب وأحكام تنظيمية لحياتهم وعلاقاتهم. وهذا هو المعنى الوارد في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية: ١٨] وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٢- بمعنى: الأحكام الشرعية العملية، وهي التي يتناولها الفقه والفقهاء. فالتشريع الإسلامي - في هذا الاستعمال - مساو للفقه الإسلامي، بمعنى أنه يشمل العبادات والأحكام الدنيوية، ويشمل إلى جانب الواجبات والمحرمات، المندوبات والمكروهات، وكذا المباحات. وهو المعنى الوارد في قوله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فالشرعة التي تختلف وتتغير من أمة إلى أمة، إنما هي شِرْعَةُ الأحكام العملية، أما العقائد والأخلاق والتشريعات الكلية، فهي ثابتة في جميع الرسالات، كما تقدم قريبا في كلام ابن العربي.

٣- بمعنى: الأحكام الشرعية التي يرجع تنفيذها إلى الدولة ومؤسساتها،

وخاصة المؤسسة القضائية. وهذا الاستعمال المضيق استعمال حديث، يكثر استعماله عند المعاصرين، وهو متأثر بالمعنى القانوني للتشريع. فلذلك لا يشمل العبادات، وكذلك لا يشمل المندوبات والمكروهات. ولا يتناول المباحات إلا عرَضا.

وعلى هذا الاستعمال مضى الشيخ ابن عاشور في كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية). قال ﷺ: «فمصطلحي إذا أطلقتُ لفظ التشريع أني أريد به ما هو قانون للأمة، ولا أريد به مطلق الشيء المشروع. فالمندوب والمكروه ليسا بمرادين لي، كما أرى أن أحكام العبادات جديرة بأن تسمى بالديانة...»[1].

وأنا - في هذا البحث - سأمضي على الاستعمال الأوسط. فهو الاستعمال الذي تدور عليه مصطلحات الشرع والشريعة والتشريع، عند جماهير العلماء منذ قرون طويلة.

وأما المعنى الأول، فرغم صحته وأصالته، فلم يعد هو المعنى المتبادر، كما أنه ليس هو المراد في اصطلاح هذه الندوة ومقصودها.

وأما المعنى الثالث، فلا أستبعده، بل هو وارد في كلامي حسب ما يظهر من السياق، غير أني لا أريد التقيد به، لأني لا أجد ما يحتم علي تقزيم «التشريع الإسلامي»، ليبقى مفهومه محصورا في دواليب الدولة، ولتبقى قامته في حدود قامة «التشريع القانوني».

*****

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، ١٢٩- نشر دار سحنون ودار السلام ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

الأخلاق
وأصول التشريع

الأخلاق وأصول التشريع

كثيرون ممن كتبوا عن الأخلاق في القرآن، أو الأخلاق في الإسلام، أو الأخلاق في التراث العربي الإسلامي... ربطوا بين «الأخلاق والفلسفة»، وبين «الأخلاق والتصوف»، وبين «الأخلاق وعلم الكلام»، وبين «الأخلاق والسياسة»...

ولكنَّ الربط بين «الأخلاق والفقه» شبه منعدم.

وعامةُ مَن صنفوا في «الأخلاق الإسلامية»، من القدماء والمعاصرين، يجعلونها عبارة عن «آداب»، ويقسمونها - مثلا - إلى آداب مع الله، وآداب مع النفس، وآداب مع الناس، إلى ما يتبع ذلك من إضافات وتفريعات. وقسمها أبو الحسن الماوردي إلى (أدب الدنيا والدين)، ثم فصل في أنواع هذه الآداب بقسميها الديني والدنيوي...

أما النظر إلى الأخلاق والتحدث عنها بمنطق الوجوب واللزوم والتحريم والمنع، أي بلغة الفقه والأصول، فهذا ما لا نعثر عليه إلا نادرا وعابرا.

ومن الاستثناءات التي يجب ذكرها، ما قام به الدكتور جمال نصار في كتابه (**مكانة الأخلاق في الفكر الإسلامي**)[1]، حيث خصص الفصل الثاني منه لـ«**الجانب الأخلاقي عند الفقهاء**». وفي هذا الفصل ملامسة خفيفة لبعض القواعد الفقهية والمباحث الأصولية، في علاقتها بالأخلاق، وهي:

- قاعدة لا ضرر ولا ضرار،
- قاعدة المصالح المرسلة،

---

(١) نشر دار الوفاء بالمنصورة - ط١/ ١٤٢٥- ٢٠٠٤.

- مبحث الواجب عند الأصوليين،
- مسألة الحيل.

ورغم أن هذا الفصل بمبحثيه هو أقرب إلى الأصول منه إلى الفقه، وليس فيه - على التحقيق - فقه ولا فقهاء، فإن لصاحبه فضلَ الالتفات إلى الربط بين الفقه الإسلامي والأخلاق.

وأما الدكتور محمد عابد الجابري فأشار إلى الموضوع إشارة عابرة بقوله: «لقد اتجه الفقهاء إلى العبادات والمعاملات، واهتموا بالجانب القانوني فيها، وأهملوا إهمالا شبه تام فقه الأخلاق العربية الإسلامية...»[1].

ورغم أن علاقة الفقهاء مع الأخلاق ليست بهذه الدرجة من السلبية أو القطيعة، فإن هذا القول فيه قدر كبير من الصواب؛ حيث إن الفقه الإسلامي غلب عليه بمرور الزمن الطابع القانوني، وضمرت فيه الجوانب والآثار العقدية والخلقية والتربوية والإصلاحية. وقد صار عامة الفقهاء يعتبرون أن اختصاصهم واختصاصَ علمهم هو «الحلال والحرام»، أو «الأحكام الشرعية»، سواء منها التكليفية أو الوضعية. وأما الجوانب الأخرى من الدين والتدين، فلها أهلها وعلومها؛ كعلم التوحيد، والتصوف، وكتب الزهد والرقائق... وحتى في بعض الحالات التي يلتفت فيها الفقهاء إلى الاعتبارات الخلقية، ويربطون بها الأحكام الفقهية، فإنهم غالبا ما يسوقونها على سبيل الاستئناس والترغيب فقط، وليس على سبيل الحُجّية والإلزام، مع أنه «ليس في الإسلام تشريع، أو حكم، إلا وله أصل خلقي، ومحتوى خلقي، ومقصد خلقي»[2].

---

(١) العقل الأخلاقي العربي، ٥٩٤.

(٢) الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية، للريسوني ٧٢- نسخة خاصة للمؤلف، والكتاب مطبوع عدة طبعات.

والجواب الجاهز لدى الفقهاء والأصوليين، هو: أن الفقه يتحرى الضبط في الأحكام وعللها وأسبابها ومناطاتها، بينما الأخلاق والمعايير الأخلاقية غير منضبطة، فيعسر بناء الأحكام عليها...

وهذا صحيح، ولكنه لا ينبغي أبدا أن يُؤدي إلى إغفال المكانة العليا والمرجعية الكلية للأخلاق في الإسلام، وأنها تستلزم تأسيسَ الفقه على الأخلاق وربطه بها ربطا مؤثرا، بدل توهين هذه المرجعية بحجة صعوبة الضبط والانضباط فيها. والفقيه لا يكون فقيها حتى يضبط ما يبدو غير منضبط، وفي هذا المقام قال ابن عبد السلام: «فإن ما لا يُحَدُّ ضابطه لا يجوز تعطيله، ويجب تقريبه»[1].

وعلى ذكر ابن عبد السلام أود أن أنوه بالعمل الرائد المتميز، الذي قام به هذا الإمام في الربط بين الأخلاق والفقه، وذلك في كتابه (**شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**)، حيث جعل «**الباب الثامن في ضروب من الإحسان المذكور في كتب الفقه**»[2].

وقد استهل هذا الباب بتقسيم «الإحسان الشرعي إلى أنواع:

- **أحدها**: فرض عين كالزكوات والنفقات،
- **الثاني**: فرض كفاية، كالجهاد وتجهيز الأموات،
- **الثالث**: سنة عين، كالضحايا والهدايا والصدقات،
- **الرابع**: سنة كفاية، كتسليم أحد الجماعة على من يمرون بهم من الآحاد والجماعات»[3].

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ٢/ ١٢ - نشر دار المعارف بلبنان.

(٢) من ص ١١٧ إلى ص ١٣٩ - منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية ببيروت - الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٣) الشجرة ١١٧.

هذا مع العلم أن السائد في كلام العلماء هو أن الإحسان - وهو ذو منبع خلقي - كله عبارة تفضل وتبرع وتطوع.

وتتمةً لكلام ابن عبد السلام، يمكن أن نقول: إن الإحسان كما يكون في فعل الواجب والمندوب، يكون كذلك في ترك المحرم والمكروه، ويكون كذلك في التعامل مع المباح. بعبارة أخرى: فالاعتبارات الأخلاقية لا تنحصر في الآداب ومكارم الأفعال، بل تدخل في كل أحكام الشريعة، الإلزامية والتطوعية معا.

وقد لـمَحت الكاتبةُ الإيطالية الدكتورة لوريا فيشيا فاكليري هذا المعنى وألمحت إليه في قولها: «فالفضائل نفسها التي تقدمها اليهودية والنصرانية بوصفها الغايةَ القصوى لحياة الإنسان، لا يقدمها الإسلام كمُثل عليا فحسب، بل يأمر بها كمثل عليا أيضا. ومن هذه المثل العليا: لإشفاق على المخلوقات جميعا، وحسن التفهم، والصفح، والبساطة، واللياقة في العلاقات الاجتماعية، وتقبل الرزايا، وما إلى ذلك...»[1]. فالمثل العليا في الإسلام ليست مجرد أشواق وآفاق ورْدية جميلة، يعشقها من يريد، ويتركها من يريد، بل هي مأمورات وتكاليف لها حرمتها وإلزاميتها، مع ترك مساحة للتطوع والارتقاء الاختياري.

الفقه والأخلاق، أو شريعة الظاهر والباطن:

من مظاهر السمو والكمال في الشريعة الإسلامية، كونُها شريعةً تشمل أحكامُها - في آن واحد - باطنَ الإنسان وظاهرَه، قلبَه وجوارحَه، سرَّه وعلانيتَه. فالإنسان - مثلا - قد يُظهر الخير والصلاح، ويضمر الشر والفساد، وقد يكون فيما يراه الناس ويعلمونه على حال، وفيما غاب عنهم على خلافها. والشريعة حاكمة عليه في

---

(١) دفاع عن الإسلام ٧٦ - ترجمة منير البعلبكي - نشر دار العلم للملايين بلبنان - الطبعة الخامسة ١٩٨١.

سره وعلانيته، فيما يظهره وفيما يضمره. فإذا أوجبتْ شيئا، فهو واجب في الظاهر والباطن، وإذا حرمت شيئا فهو حرام في الظاهر والباطن. هذا فضلا عن كون الباطن له واجباته ومحرماته الخاصة به.

- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] .
- وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١].
- وقال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠]..
- وقال أيضا: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]

وقد يلوح من هذا التقسيم أن الفقه - أو التشريع بمعناه الاصطلاحي - يختص بحكم الظاهر من الأفعال والأحوال، وأن الأخلاق تختص بحكم الباطن منها. وهذا صحيح إلى حد ما، وأما الصحيح تماما، فهو أن الأفعال الظاهرة يحكمها الفقه والتشريع ولا يتجاوزها، وأما الأخلاق فتحكم الظواهرَ والضمائر، وتتدخل فيهما معا.

تكفل الأخلاق بالسرائر والضمائر :

أعني أن الأحكام التشريعية الفقهية لا حكم لها على السرائر وما تكنه الضمائر، وأن الحكم في هذا المجال أخلاقي وأخروي.

فالحب والرقة والعطف والشفقة والإخلاص والنية الحسنة والتقوى وحسن الظن وتواضع النفس وعزتها وعفتها... إلى غير ذلك من المكارم القلبية النفسية،

وكذلك ما في الجهة الأخرى، من الكبر والنفاق والرياء والنية السيئة وسوء الظن والطمع والجشع والحقد والحسد...وغير ذلك من الآفات القلبية والنفسية،

هذه الأمور لا سلطان عليها للفقه والتشريع والقضاء، ما دامت في دائرتها

الباطنية (القلب والنفس والضمير)، وإنما حاكمُها والمعولُ عليه فيها هو الوازع الخلقي الدياني والجزاء الأخروي.

وكذلك الشأن في الأفعال الخفية التي يتعذر على غير أصحابها الاطلاعُ عليها وإثباتُها، أو يتعذر فحصها ومعرفة حقيقتها، فهي داخلة أيضا في حكم «السرائر والضمائر» التي تُوكَل لكل واحد مع نفسه ومع ربه. ولكنها تدخلها الأحكام والتوجيهات الخلقية، التي تشتغل ذاتيا. قال الشاطبي: «وما لا ينضبط رُدَّ إلى أمانات المكلفين، وهو المعبر عنه بالسرائر»[1].

ومعنى هذا أن ما لا يسري عليه ولا يضبطه سلطان التشريع والقضاء والجزاء الدنيوي، لا يبقى غُفْلا من أي حكم أو تبعة أو مسؤولية، بل يسري عليه سلطان الأخلاق والحساب الأخروي. كما أن أحكام الظاهر لا تُسقط حقائقَ الباطن وأحكامَه. ومن هنا قرر الفقهاء أن «حكم الحاكم لا يحل حراما ولا يحرم حلالا»؛ أي أن ما يكون حراما وباطلا في علم الله وحكمه، إذا لم يتمكن القاضي من معرفة بطلانه، فحَكَمَ به لمن ادعاه وأثبته زورا، فهو باق على تحريمه وبطلانه من الناحية الديانية الأخروية. والعكس صحيح أيضا. فالحكم القضائي الدنيوي لا يسقط الحكم الأخلاقي الأخروي.

وأَفْضَلُ توضيح لهذا المعنى ما جاء في حديث الصحيحين، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه. فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار**».

يقول الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله: «ومن هنا افترق الفقه الإسلامي حتى في

---

(١) الموافقات ٢/ ٣٠٩.

القسم المدني منه - وهو المعاملات - عن القوانين المدنية الوضعية (أي التي ليس لها صفة دينية، بل هي من وضع الأمم لنفسها). ففي تلك القوانين، لا محل لفكرة الحلال والحرام، ولا عبرة لبواطن الأمور، بل العبرة للظواهر والصور؛ فما أمكن منه القانونُ وقضت به الأحكام كان حقا سائغا، وما لم يكن منه فليس بحق. أما الفقه الإسلامي، فللاعتبار الديني في مبناه، كانت فكرة الحلال والحرام رقيبا باطنيا، ترافق الإنسان وتنادي به في كل عمل. والعبرة في تعلق الحقوق للحقائق، وإن كان القضاء يجري ضرورة على الظاهر»[1].

والنتيجة: أن الأخلاق تتقدم حيث يتوقف التشريع، وتنفع حيث لا ينفع القضاء. فوظيفة الأخلاق مكملة لوظيفة التشريع، أو لعل الأحرى أن نقول: **إن وظيفة التشريع مكملة لوظيفة الأخلاق.**

غير أن علاقة الأخلاق بالتشريع ليست محصورة هنا، بل الأخلاق عنصر مؤسس للتشريع وموجه لأحكامه وبوصلته، وهذا ما يمكن تسميته **بالوظيفة الأصولية للأخلاق.**

دخول الأخلاق في تأسيس الأحكام التشريعية:

الناظر في أحكام القرآن[2]، يجد أن كثيرا منها تم ربطه ودمجه بشكل صريح مع علله ومقاصده الخلقية. وهذا واقع في جميع المجالات التشريعية؛ من عبادات، ومعاملات مالية واجتماعية، وسياسة شرعية، وعلاقات خارجية في السلم والحرب... وهذا الربط القرآني بين الأحكام والأخلاق، لا بد وأن ينعكس في الاجتهاد الفقهي في الفتوى والتشريع.

---

(١) المدخل الفقهي العام ١/ ٥٦.

(٢) والسنة النبوية كذلك.

وفيما يلي بعض النماذج لتأسيس الأحكام على الأخلاق، وهي من مجال واحد، بل من جانب واحد من هذا المجال، وتتعلق **بالعلاقات الزوجية.**

للفقهاء قاعدة جليلة[١] يعبرون بها عن الخصوصية الأخلاقية لفقه العلاقات الزوجية، وهي قولهم: «**النكاح مبنيٌّ على المكارمة**»، أو «**مبنَى النكاح على المكارمة**»[٢]، أو «مبني النكاح على المسامحة والمروءة»[٣]. وللمقارنة وتمام المعنى يقولون: «**البيع مبني على المشاحَّة، والنكاح مبني على المكارمة**»[٤].

والمكارمة هنا تعني تعامل الزوجين بكرم متبادل، يتمثل في أن يؤديَ كل منهما حق الآخر ويزيدَ عليه، وأن يتسامح ويتغاضى عن بعض حقوقه، حبا وكرامة وهدية. فهذه هي طبيعة الزواج والعلاقات الزوجية، أو هكذا يجب أن تكون.

أما الحرص على الاستيفاء التام لجميع الحقوق، مع المشاحَّة والمحاسبة والمخاصمة على النَّقيرِ والقِطْمِيرِ، والجليلِ وَالحُقِير، فهذا لا يليق بالزواج والعلاقة الزوجية. فالعلاقة الزوجية ليست تجارة ولا إجارة، ولا معاوضة على المنافع والحقوق[٥].

وهذا المعنى الكبير قد صرحت به وحثت على مراعاته آيات عديدة من الذكر الحكيم.

---

(١) أكثر ما توجد هذه القاعدة عند المالكية، ثم الحنفية.

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، ٢/ ٣٠٥ - نشر دار الفكر بلبنان - دت. والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور ٤/ ٢٤.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين لكاساني ٢/ ٢٨٣ - نشر دار الكتب العلمية - الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٤) شرح مختصر خليل للخرشي٣/ ٢٣٧ - دار الفكر بلبنان - دت.

(٥) لمزيد من التوضيح والتطبيق، راجع القاعدة رقم ١٤٩٤، المجلد ٢٣، من (معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية).

- فالزوجية أساسها ومقصودها تحقيق حياة تسودها السكينة والمودة والرحمة، ويظللها الوئام والسلام. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]..

- بل إن الحياة الزوجية يجب أن تصل إلى حد أن يتلبس كل من الزوجين صاحبه ويندمج فيه. وهذا ما تقرره الآية الكريمة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ . [البقرة: ١٨٧]

- ولترسيخ هذه الروابط والمقاصد، أمر الله تعالى بإيتاء الزوجة صداقها هدية وتكرمة وعربونا على الرغبة والاستعداد للبذل، وألا يؤخذ منه شيء بعد ذلك إلا برضى وطيب نفس﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤] .

- والحياة الزوجية المنشودة لا تتحقق ولا تدوم إلا بالمعاشرة الكريمة السمحة، المسلحة بالصبر والتحمل والتجاوز، فيما عساه يكون مزعجا وغير ملائم لدى شريك الزوجية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩] .

- وحتى في حالة الشقاق والفراق، فإن الله سبحانه يوصي بأن تظل أخلاق التسامح والعفو والمكارمة هي العملة الرائجة بين الزوجين المفترقين:

- كما في قوله ﷻ: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧] .

- وقوله أيضا: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١]..

والخلاصة والعبرة من مضامين هذه الآيات وتوجيهاتها، هي أن علاقات الزوجين، وحقوقهما وواجباتهما المتبادلة: المالية والجسدية والمعنوية، يجب أن تكون محكومة بهذه القيم الخلقية النبيلة، التي جمعها الفقهاء في اعتبارهم الزواج مبنيا على المكارمة والمسامحة والمروءة، لا على المشاحَّة والمحاسبة والأنانية.

ومن هنا ندرك خطورة ذلك المسلك والمنزلق الذي تجر إليه بعض المفاهيم والدعوات «الحقوقية والتقدمية»، حين تتعامل مع العلاقات الزوجية، كتعاملها مع سائر العلاقات والحقوق والنزاعات المدنية والمالية والمهنية والنقابية والطبقية...، بحيث تشحنها بروح التحريض على المشاحَّة والتنافس والصراع والغلبة.

فالزواج الذي يتحول إلى حلبة تنافس وصراع خير له أن ينتهي، أو ألا يكون أصلا، والزواج الذي لا ترفرف فوقه راية الأخلاق، لا قيمة له، بل لا بقاء له.

نموذج فقهي لاعتبار الأخلاق في فتاوى الزواج :

ويتعلق بمسألة «الزواج بنية الطلاق».

وهذه المسألة مفادها: أن يتزوج شخص وفي عزمه نيةٌ مضمرة بأنه سيطلق في وقت معين يستغني فيه عن هذا الزواج. ووقوع مثل هذا الزواج قديم. وكان أكثر ما يقع من رجال يرحلون بعيدا عن أهلهم وموطنهم، ويمكثون في الغربة زمنا طويلا، لأغراض تجارية ومهنية وغيرها، ولم يكن التزاور ولا أخذ الزوجة ميسورا. وهنا يحتاج المتغرب لأن يتزوج في بلد المهجر، لكن عند نهاية مقامه في مهجره، يطلّق ويعود إلى زوجته في بلده، أو يعود ليتزوج في بلده.

ومن قديم وقع الاختلاف في هذا الزواج ومدى مشروعيته، والجمهور على صحته وجوازه، وهو مكروه أو محرم عند بعض الفقهاء.

أما اليوم فقد كثر هذا الزواج وكثرت أسبابه ودواعيه...

فممن يلجؤون إليه:

الطلبة المسلمون الذين يهاجرون - بمئات الآلاف - للدراسة في البلدان الغربية، ويمكثون هناك عدة سنوات.

ومنهم المهاجرون للعمل في هذه الدول، أو في دول إسلامية غير بلدهم، وهم بالملايين.

ومنهم موظفو البعثات الدبلوماسية والتجارية، وموظفو الشركات العالمية والمنظمات الدولية.

وهناك الموظفون المبتعثون للتدريب والتطوير في مختلف التخصصات.

فهؤلاء بعضهم يكونون عُزَّابا، وبعضهم يكونون متزوجين ولهم أبناء، ولكن ربما يصعب عليهم اصطحاب أزواجهم وأبنائهم، ثم العودة بهم بعد سنتين أو ثلاث، أو أقل أو أكثر. فلذلك يلجؤ البعض منهم إلى زواج عابر خاص بفترة الاغتراب، وهو «الزواج بنية الطلاق».

وفي هذا العصر سبق أن أفتى الشيخ عبد العزيز بن باز، وغيره من علماء السعودية، بجوازه وصحته، وأفتى آخرون بمنعه...

لكن هذا «الزواج» تطور في السنين الأخيرة حتى أصبح ظاهرة خليجية، وأصبح مطلوبا لذاته عند بعض الميسورين، حيث أصبحوا يسافرون أو يختلقون أسبابا للسفر، خصيصا لكي «يتزوجوا» لفترة من الزمن، ثم يعودون. فصرنا أمام: السفر بنية الزواج، ثم الزواج بنية الطلاق...، أو أمام «الزواج السياحي»، كما سماه

بعض الفقهاء.

ومن هنا بدأ يتزايد الإفتاء بمنعه وتحريمه، وبدأ القول بإباحته وسلامته يتراجع؛ وذلك بناء على ما فيه من غش وتدليس على المرأة المتزوَّج بها وعلى ذويها، وأيضا لما فيه من إهدار لروح الزواج ومقاصده ومسؤولياته.

ودون أن أطيل في بسط السجال الفقهي القديم والحديث في هذه المسألة، أكتفي بما ورد في فتويين معاصرتين، تعكسان التوجه الفقهي المتزايد نحو تحريم هذا الزواج، وتركزان خاصة على الاعتبارات الأخلاقية فيه، وذلك هو بيت القصيد عندنا.

الفتوى الأولى: لمركز الفتوى التابع لموقع الشبكة الإسلامية

ونصها: «الزواج بنية الطلاق: لا يخلو من حالتين: إما أن يَشترط في العقد بأنه يتزوجها لمدة شهر أو سنة، أو حتى تنتهي دراسته. فهذا نكاح متعة وهو حرام، والعقد فاسد.

وإما أن ينوي ذلك بدون أن يشترطه، فمذهب الجمهور عدم منعه. والمشهور من مذهب الحنابلة أنه حرام وأن العقد فاسد، لأنهم يقولون: إن المنْويَّ كالمشروط، لقول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى**» متفق عليه، ولأن الرجل لو تزوج امرأة من شخص طلقها ثلاثا من أجل أن يحللها له ثم يطلقها فإن النكاح فاسد، وإن كان ذلك بغير شرط، لأن المنوي كالمشروط، فإذا كانت نية التحليل تفسد العقد، فكذلك نية المتعة تفسد العقد. هذا هو قول الحنابلة.

والقول الثاني لأهل العلم: أنه يصح أن يتزوج المرأة وفي نيته أن يطلقها إذا فارق البلد، كهؤلاء الغرباء الذين يذهبون إلى الدراسة ونحو ذلك. قالوا: لأن هذا لم يَشترط، والفرق بينه وبين المتعة أن المتعة إذا تم فيها الأجل حصل الفراق شاء الزوج أم أبى، بخلاف هذا فإنه يمكن أن يرغب في الزوجة، وتبقى عنده. وهذا

أحد القولين لشيخ الإسلام ابن تيمية. وهذا الكلام صحيح، من جهة أنه لا ينطبق عليه تعريف المتعة.

ولكن لقائل أن يقول: إنه محرم من جهة أنه غش للزوجة وأهلها، وقد حرم النبي ﷺ الغش والخداع. فإن الزوجة لو علمت بأن هذا الرجل لا يريد أن يتزوجها إلا لهذه المدة ما تزوجت به، وكذلك أهلها. كما أنه هو لا يرضى أن يتزوج ابنتَه شخص في نيته أن يطلقها إذا انتهت حاجته منها، فكيف يرضى لنفسه أن يعامل غيره بما لا يرضاه لنفسه؟ يقول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» متفق عليه. ومثل هذا الفعل غش وخداع وتغرير، ولأن فتح هذا الباب يترتب عليه مفاسد كبيرة، حيث إن أكثر الناس لا يمنعهم الهوى من تعدي محارم الله، وقد كرهه مالك رحمه الله.. وقال: إنه ليس من أخلاق المسلمين.

وعلى القول بالحرمة فلا فرق في الحكم بين المسلمة والنصرانية؛ فالغش حرام ومذموم في التعامل مع أي إنسان كان. والله أعلم»[١].

الفتوى الثانية: للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث

ونصها: « ... فالعقد وإن كانت صورته صحيحة، ولكن الزوج آثم بغشه المرأة؛ وذلك لإضماره نية الطلاق من حين العقد، والزواج في الإسلام يعني الديمومة والبقاء والاستقرار للحياة الزوجية، والطلاق طارئ بعد العقد. ولهذا السبب حرم الزواج المؤقت واعتبر فاسدًا. كذلك فإن الإيجاب والقبول في الزواج شرطان أساسيان فيه[٢]، والمرأة حين قبلته زوجًا فإنما كان مقصدُها حقيقةَ الزواج، ولو علمت أنه قبلها زوجة مؤقتة يطلقها متى شاء لرفضت ذلك، فإذا كان عازمًا

(١) (http://fatwa.islamweb.net/fatwa).

(٢) قلت: بل هما ركن الزواج.

الطلاق عند العقد أثّر ذلك في صحة العقد، لأن المرأة بنت قبولها على غير ما أراد»[١].

بقي أن أضيف أن الذين يبيحون الزواج بنية الطلاق، يبنون ذلك على إثبات كونه مختلفا عن نكاح المتعة، المجمع على تحريمه عند أهل السنة؛ فهو ليس فيه تصريح بالتوقيت الذي يبقى مكتوما لدى الزوج، بينما زواج المتعة فيه تصريح بالتوقيت واتفاق عليه بين الطرفين. والحقيقة أن الزواج بنية الطلاق أسوأ من نكاح المتعة؛ لأنه في حقيقته زواج مؤقت، ثم فيه غش وخداع للمرأة المتزوَّج بها ولذويها. فهو أولى بالتحريم.

*****

(١) http://e-cfr.org/new/?fatwa .

الأخلاق والمقاصد

الأخلاق والمقاصد

الأخلاق والضروريات الخمس:

تفكيري في أهمية الأخلاق وانشغالي بها ورغبتي في إنصافها، يرجع إلى أيام إعدادي لرسالة الماجستير في موضوع (نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي)، وذلك في أواخر الثمانينيات من القرن الميلادي المنصرم.

حينها كان من المواضيع التي اشتغلت بدراستها قضية الضروريات الخمس، وهل يمكن الزيادة عليها، كما أشار بعض الأصوليين المتقدمين، وكما يلح على ذلك بعض المفكرين والكتاب المعاصرين؟

كنت آنئذ قد انتهيت إلى أن مكانة «الأخلاق» ووظيفتها في الحياة، لا تقل أهمية ولا مكانة ولا ضرورة عن «الضروريات الخمس»، التي احتفي بها العلماء وعظموا شأنها، وعدُّوها - بإجماع تام - مدارَ الشريعة وعمادَها، بل مدارَ الشرائع المنزَّلة كلها. واستقر في نفسي أن «الأخلاق» تستحق بكل جدارة أن تضاف إلى الضروريات الخمس، سواء كانت السادسةَ أو قبل ذلك. وفكرت في التطرق إلى هذا الرأي وبيانه والدفاع عنه، ولكني أحجمت خشية أن يكون ذلك مقحما على الموضوع الأصلي للكتاب، المخصص للإمام الشاطبي ونظريته. وقلت: إذن أكتب فيه إن شاء الله بشكل مستقل ومستوف.

لكن مع مرور الوقت لم أعد متحمسا لإلحاق الأخلاق بالضروريات الخمس، رغم أن أهميتها وضرورتها لم تنقص في نظري، وإنما هي تزيد كلما تأملت فيها أو درست جانبا منها. وسبب هذا العدول هو تغير موقفي من الضروريات الخمس و«مسألة حصرها أو الزيادة فيها». فالذي استقر عليه الأمر عندي هو أن «الضروريات الخمس» لا مزيد عليها إذا فهمت على ما أراده بها القدماء، وهو أنها

تعني المصالح الاضطرارية الأساسية، التي لا تقوم بدونها حياة دنيوية ولا أخروية، وأن فقدانها مفضٍ حتما إلى الهلاك والخراب.

وعليه أصبحت أرى الإبقاء على حصر هذه «الضروريات الخمس» على ما انتهى إليه علماؤنا السابقون، والإبقاء على اصطلاحهم بلفظه وعدده ومعناه.

لكن بالمقابل، لا شيء يمنعنا من الحديث عن ضروريات أخرى، منفردة أو مجتمعة، مما له شأن وخطر في مجمل الحياة البشرية؛ كالأخلاق، والعدل، والأمن، والحرية، وكرامة الإنسان(١)...وأن نعطيها من التعظيم والعناية والرعاية ما تستحقه شرعا وواقعا.

الأخلاق مقاصد كلية للشريعة:

من أبرز المقاصد العامة الكلية للشريعة ولبعث الرسل والأنبياء: تزكيةُ الناس في نفوسهم وسلوكهم. وقد جاء هذا المعنى صريحا في مواضع عديدة من الذكر الحكيم، كما نقرأ في هذه الآيات:

- ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]..

- ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]..

- ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]..

---

(١) فهذه أيضا «ضروريات خمس»، قد تماثل وتضاهي الضروريات الخمس المعروفة. ولكن إذا نظرنا إلى معنى «الضرورة»، فهي دونها في الدرجة...

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]..

قال العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي ﷺ: «ذكر الله تعالى مقاصد البعثة المحمدية الرئيسية وفوائدها الأساسية في عدة آيات من القرآن الكريم...- يقصد الآيات الأربع السابقة – ثم قال: «ومهمة تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس تشغل مكانا كبيرا في دائرة الدعوة النبوية ومقاصد البعثة المحمدية»[١].

قلت: وهذا شأن الرسل جميعا كما هو معلوم، وهو واضح من دعاء إبراهيم ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ.... ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وكما هو واضح في قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .
[الأعلى:١٨، ١٩]

فكل الأخلاق الحميدة الزكية التي جاء بها الرسل، هي من جملة المقاصد والمصالح الكلية المطلوب تحقيقها وإقامتها في الذوات والصفات والأعيان والأفعال. قال الإمام ابن تيمية: «وكذلك فيما شرعه الشارع من الوفاء بالعهود، وصلة الأرحام، وحقوق المماليك والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه حفظا للأحوال السنية وتهذيب الأخلاق، ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من المصالح»[٢].

*****

(١) العقيدة والعبادة والسلوك ص ١٣٤.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٣٤)

الأخلاق
في المجال الطبي

الأخلاق في المجال الطبي

إذا كانت مجالات الحياة كلُّها تحتاج إلى الأخلاق، وتستقيم وترتقي بالأخلاق، فإن العمل الطبي هو في أصله وجوهره عمل أخلاقي، ولا تقوم له قائمة إلا بالأخلاق. وإذا كان علماء الشرع يقولون: «الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين»، فعلى علماء الطب أن يقولوا لبعضهم: «الطب كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الطب». وإذا كان مقام الطبيب ومكانته يتحققان ويقدران بحسب ما له من علم وخبرة وتجربة ومهارة، فإن النجاح الفعلي في ذلك كله يتوقف على مقدار ما له من محاسن الأخلاق؛ من رأفة ورحمة وشفقة، ومن رقة ورفق ولين، ومن صبر وأناة وتواضع...

مقاصد الشرع ومقاصد الطب:

من المعلوم أن مقاصد الشرع مدارها على حفظ [1] الضروريات الخمس؛ وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال.

ولو أردنا أن نتحدث عن مقاصد الطب لوجدنا أنها لا تخرج عن حفظ النفس والنسل والعقل. فهي تشترك مع مقاصد الشرع في ثلاثة من خمسة.. ثم نجد أن حفظ هذه الضروريات الثلاث المشتركة يساعد على حفظ الدين والمال. وعلى هذا فمقاصد الطب مندرجة في مقاصد الشرع متلاحمة معها إلى حد كبير. ومعلوم أن حفظ النفوس - سواء في الشرع أو في الطب - لا يقف عند الحفظ المادي، بل

(١) حفظ الضروريات وغيرها من المصالح ليس محصورا - كما يتوهم بعض الناس - في الصيانة والحماية لما هو موجود منها، وهو ما يسميه العلماء بالحفظ العدمي، بل هو - أولا - السعيُ إلى إيجادها وإقامتها وتنميتها وتوفير كافة الأسباب المؤدية لذلك. وهو ما يسميه العلماء بالحفظ الوجودي. فما من «حفظ» إلا وله وجهان: وجودي أولا، وعدمي ثانيا.

يشمل الحفظ المعنوي، بما يعنيه من سلامة وصحة وتوازن في الحالة النفسية. ثم يتقدم الشرع -فينفرد أو يكاد- بحفظه للصحة والعافية الروحية للإنسان. ولذلك نجد علماءنا يقررون أن «الشرع هو الطبيب الأعظم»[1]. المهم أن مقاصد الشرع ومقاصد الطب تلتقي في أن الموضوع هو الإنسان، وأن الغرض هو الصحة البدنية والنفسية والعقلية للإنسان، وأن الغاية هي سعادة الإنسان. رسالة الطب هي نشر الشفاء والرحمة، ورسالة الدين هي نشر الشفاء الأوسع والرحمة الأعم. ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢].. فالشفاء والرحمة مقصدان مشتركان بين الرسالتين الطبية والشرعية، وإن تفاوتت الساحة والمساحة بينهما....

ولعلماء الشريعة تعبير آخر يختصر مقاصد الشريعة وضرورياتها في كلمتين جامعتين هما: حفظ الأديان، وحفظ الأبدان. فمصالح الخلق مدارها على حفظ الأديان وحفظ الأبدان. وأساس السعادتين (الدنيوية والأخروية) حفظ الأديان وحفظ الأبدان. وعمدة الثقافات والحضارات حفظ الأديان وحفظ الأبدان. وأساس كل تنمية وترقية حفظ الأديان وحفظ الأبدان.

وعادة ما يتوقف المفسرون للتنبيه على المغزى فيما تضمنه قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر : ١٣]، حيث تم الجمع والربط بين آيات الله ومعجزاته الدالة عليه وعلى رسله من جهة، وبين الامتنان بإنزال الرزق من السماء من جهة أخرى. وسر ذلك عندهم هو أن هذين الأمرين يشكلان جماعَ مقاصد الشرائع؛ فأحدهما فيه حفظ الأديان، والآخر فيه حفظ الأرزاق والأبدان.

قال الفخر الرازي: «واعلم أن أهم المهمات رعايةُ مصالح الأديان ومصالح

---

(١) الموافقات للشاطبي - (٣/ ١٤)

الأبدان، فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات، وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء. فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان. فالآيات لحياة الأديان، والأرزاق لحياة الأبدان. وعند حصولها يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات»[١].

ونقرأ في تفسير القرطبي قوله: «قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي دلائل توحيده وقدرته، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق؛ لأن بالآيات قوامَ الأديان، وبالرزق قوام الأبدان»[٢].

وقد استقر في الثقافة الدينية - الإسلاميةِ وغيرِها - أن العلوم كلها تتمحور حول حفظ الأديان وحفظ الأبدان، مع العلم أن جزءا كبيرا من الأديان مخصص مباشرة لحفظ الأبدان...

ويروى أن الخليفة العباسي هارون الرشيد «كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال قوله ﷻ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾. فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب، فقال علي: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال: **«المعدة بيت الأدواء والحِمْية رأس كل دواء، وأعط كل جسد ما عودته»**. فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا»[٣]

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٣٨) - نشر دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٩٩) تحقيق هشام سمير البخاري - الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية - ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ١٩٢)

ومن القواعد المعروفة في الفقه ومقاصد الشريعة، قاعدة «تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة». وفي تطبيقات هذه القاعدة نجد الاقتران والمقارنة بين حفظ مقاصد الطب وحفظ مقاصد الشرع، أو بين حفظ الأبدان وحفظ الأديان، حيث يقرر الفقهاء وجوب الحجر على الفقيه الماجن، وعلى الطبيب الجاهل، لكون الأول يفسد الأديان، والثاني يفسد الأبدان. ولذلك قيل: «**يُفسد الأديانَ نصفُ متفقه، ويفسد الأبدانَ نصفُ متطبب**».

والذي أراه أن الطبيب الذي لا خَلاق له، مهما كان علمه بالطب ودرجته فيه، يكون أشد خطرا وضررا على الناس من الطبيب الجاهل. وإذا كان الطبيب الجاهل يحجر عليه، فإن الطبيب الفاسد ينبغي ان ينكل به.

ولكي ندخل أكثر في المقاصد الخلقية للشريعة، وخاصة منها ما هو أكثر التصاقا بالعمل الطبي وأبلغ أثرا فيه، أتناول في الصفحات الآتية أصلين كبيرين من أصول الأخلاق الإسلامية، وهما:

- **خُلُق التقوى**،
- **وخُلُق الرحمة**.

وسيظهر جليا ما يتفرع عن هذين الأصلين من أخلاق ذات أثر بليغ في السلوك البشري عامة، وفي سلوك الطبيب والمعالج بصفة خاصة.

أولا: التقوى منبع الأخلاق:

سواء تعلق الأمر بالمجال الطبي أو بغيره من المجالات الدينية والدنيوية، بحفظ الأديان أو بحفظ الأبدان، فإن خُلُقَ التقوى يحتل مكان المركز والمنبع لسائر الأخلاق. وهذا ما صرح به عدد من العلماء، كما في قول ابن عاشور: «جماع مكارم الأخلاق يعود إلى التقوى»[1].

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور ص٢٠٧، دار النفائس بالأردن - ١٤٢١/٢٠٠١.

فما حقيقة التقوى؟ وما هي مكانتها وآثارها السلوكية؟

ماهية التقوى...

التقوى في اللغة من الاتقاء والوقاية . «والوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وَقَيْتُ الشيء أقيه وقاية ووقاء »[1]، ومنه قوله تعالى ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان:١١] وقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٥٦]..

وقيل: الوقاية «هي فَرْط الصيانة وشدة الاحتراس من المكروه . وأصل الاتقاء الحَجْرُ بين شيئين، ومنه يقال (اتقى بتُرسه) . وفي الحديث: «كنا إذا احمَرَّ البأسُ اتـقَيْنا برسول الله ﷺ»[2] .

قال الراغب الأصفهاني / ٣ ملخصا المعنى اللغوي للتقوى: «والتقوى جعلُ النفسِ في وقاية مما يُخاف. هذا تحقيقه. ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفا، حسب تسمية مقتضَى الشيء بمقتضيه، والمقتضي بمقتضاه »[3] .

والتقوى في استعمالات الشرع تعبر عن حالة خلقية، قلبية نفسية، تجعل صاحبها مرهف الشعور بالمسؤولية ومحاسبة النفس، مقدرا لعواقب الأفعال وآثارها، فيتصرف بناء على ذلك، من تلقاء نفسه، سواء تعلق ذلك بنفسه، أو بربه، أو بأي كان من خَلْق الله.

فالشخص المتقي: يستشعر مدى فضل الله ونعمه عليه فيتقيه، وهو يَهابُ ربه ويخاف مقامه فيتقيه، وهو يستحيي من ربه الذي يراه – وقد أمره ونهاه – فيتقيه،

---

(١) المفردات للراغب ٢/ ٦٨٨.

(٢) رواه مسلم ٣/ ١٤٠١ (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب ﵁؛ ورواه أحمد ٢/ ٤٥٣-٤٥٤ (١٣٤٧)؛ والنسائي في الكبرى ٨/ ٣٤ (٨٥٨٥) من حديث علي ﵁ .

(٣) المفردات للراغب ٢/ ٦٨٨.

وهو يخاف غضب الله وعقابه فيتقيه. وهو يرى ويدرك قبح الأفعال السيئة وعواقبها عليه أو على غيره، فيعتبر بها ويتعظ منها فيتقيها ...

فالتقوى انضباط وارتقاء ذاتيان، كما قال عمر بن عبد العزيز « التقيُّ ملجَم، لا يفعل كل ما يريد »[١]، لكنه ملجم بتقواه، بإرادته واختياره وحسن تقديره. كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: «التقوى العمل بطاعة الله على نور من الله، رجاء رحمة الله. والتقوى ترك معاصي الله على نور من الله، مخافة عذاب الله »[٢].

والتقوى يقظة وتبصر وحذر، في كافة التصرفات والحركات والخطوات. كما نبه على ذلك أبو هريرة رضي الله عنه، حين جاءه رجل يسأله عن معنى التقوى، فقال له: «هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصُرت عنه. قال: ذاك التقوى »[٣].

التقوى في القرآن والسنة :

النصوص الشرعية المتعلقة بخُلُق التقوى غزيرة ومتنوعة، وخاصة في القرآن الكريم. وهي كلها تعكس ما سبق ذكره من كون التقوى قضية مركزية ومحورية في الإسلام وشريعته. بل هي كذلك في دعوات كافة الأنبياء والمرسلين، مثلما نجد في النص الأول من النصوص القرآنية التالية:

١- قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وقد جاءت هذه الآية بلفظها على لسان

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٦٣(٥٧٨٨)؛ والزهد الكبير له ٣٥٧ (٩٢٥) (٩٢٩)؛ والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣٤١.

(٢) رواه/ ابن المبارك في الزهد والرقائق ٤٧٣-٤٧٤ (١٣٤٣)؛ وابن أبي شيبة في المصنف ١٥/ ٥٩٩ (٣٠٩٩٣)، ١٩/ ٣٥٧ (٣٦٣٠٨)؛ وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٦٤ (٢٠٩)؛ والبيهقي في الزهد الكبير ٣٦٧ (٩٦٣).

(٣) رواه البيهقي في الزهد الكبير: ٣٦٧.

عدد من المرسلين، في سورة آل عمران (٥٠) وسورة الشعراء (١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩) وسورة الزخرف (٦٣) . وهذا معناه أن (التقوى) هي مقصد مشترك وقاعدة ثابتة في جميع الشرائع المنزلة .

٢ - قوله سبحانه: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١-٥]..

٣ - قوله جل وعلا: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة :١٩٧]وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٢] وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣].

ومن جوامع السنة النبوية في الباب:

١ - عن أبي ذرٍّ ﷺ قال، قال لي رسول الله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن**»[(١)].

٢ - وعن أبي هريرة ﷺ قال: «سُئِل رسول اللهِ ﷺ عن أكثر ما يُدْخِل النَّاسَ الجنةَ فقال: «**تقوى الله وحُسنُ الخُلق**». وسُئِل عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ النارَ فقال:

(١) رواه أحمد ٣٦/ ٣٨٠-٣٨١ (٢٢٠٥٩)؛ والترمذي ٤/ ٣٥٥-٣٥٦ (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

الفَم والفرْج»[١].

٣ - في حديث طويل عن أبي ذر ﷺ قال، قلت يا رسول الله أوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس الأمر كله»[٢].

فاعلية التقوى وآثارها :

التقوى - كما تقدم - تنبعث من رقابة ذاتية يمارسها كل واحد على نفسه ومن داخل نفسه. ولذلك فهي حاضرة مع صاحبها في كل وقت وحين. فالإنسان في حياته يمكن أن يغيب عن الناس ويغيب عنه الناس، فيتخلص من رقابتهم ومحاسبتهم ولومهم وضغطهم، ويمكن أن يكون مقامه فوق الناس، بسلطانه وسطوته، أو بعلمه ومرتبته، أو بجاهِه ومنصبه، ولكن تقواه - إن كان من أهل التقوى - تظل حاضرة معه رقيبة عليه موجهة لسلوكه، في سره كما في علنه، وفي سفره كما في حضره، وفي ليله كما في نهاره، وفي انفراده بنفسه كما في اجتماعه مع غيره.

وقد كان رسول الله ﷺ يوصي المسافرين خاصة بتقوى الله، لأن المسافر ذاهب إلى حيث لا يعرفه أحد، وربما مر من حيث لا يراه أحد. فهو بحاجة أكثر إلى استصحاب تقواه وإلى إعمال تقواه . عن أنس ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله، إني أريد سفرا فزودني . قال: زودك الله التقوى ... الحديث[٣]. وعن أبي هريرة قال: أراد رجل سفرا فأتى النبيَّ ﷺ فقال: أوصني، فقال: «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شَرَف»[٤].

(١) رواه الترمذي ٤/ ٣٦٣(٢٠٠٤)؛ وابن ماجه ٢/ ١٤١٨ (٤٢٤٦)؛ وقال الترمذي: حديث صحيح غريب.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ٢/ ٧٨ (٣٦١)؛ وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٦٨.

(٣) رواه الترمذي ٥/ ٥٠٠ (٣٤٤٤)؛ والحاكم ٢/ ١٠٧ (٢٤٧٧)؛ وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٤) رواه أحمد ١٤/ ٦٢ (٨٣١٠)، ١١٧ (٨٣٨٥)، ١٥/ ٤٥١ (٩٧٢٤)؛ والترمذي ٥/ ٥٠٠=

والتقوى يُحتاج إليها أكثر في المَواطن الصعبة، كمَواطن الحب والبغض، والغضب والطمع، والهوى والشهوة، والعداوة والخصومة... وفي قصة الثلاثة الذين انسد عليهم الغار، فتوسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة، نماذج بليغة من آثار التقوى، في مواطن لا ينفع فيها شيء سوى التقوى . وهذه قصتهم كما وردت في الحديث الصحيح.

عن عبد الله بن عمر ﷺ ، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: بينما ثلاثة نفر يتمشون، أخذهم المطر فأوَوْا إلى غار في جبل، فانحطت على فَمِ غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم . فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله، فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم . فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتي، ولي صِبْيَة صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدَيَّ فسقيتهما قبل بَنيَّ، وأنه نأى بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما . فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمَيَّ. فلم يزل ذلك دأبي ودأبَهم حتى طلع الفجر . فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء . ففرج الله منها فرجة فرأوا السماء . وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجالُ النساءَ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار . فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها . فلما وقعتُ بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها . فإن كنتَ تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم . وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرَق أرزٍّ[1]، فلما

= (٣٤٤٥)؛ والنسائي في الكبرى ٩/ ١٨٨ (١٠٢٦٦)؛ وابن ماجه ٢/ ٩٢٦ (٢٧٧١)؛ وقال الترمذي: حديث حسن.

(١) الفرق، بفتح الراء وتسكينها، إناء يعادل ثلاثة آصع. والمراد أنه يعطيهم أجرتهم بمقدار من الرز.

قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه. فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها . فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعاءها فخذها. قال: اتق الله ولا تستهزئ بي. فقلت: إني لا أستهزئ بك خذ ذلك البقر ورعاءها. فأخذه فذهب به. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي [١] .

فهذه ثلاثة نماذج من أرقى وأتقى ما يتصور من السلوك البشري ومن السمو البشري. وكلهم فعلوا ما فعلوا من دون رقيب ولا حسيب من الناس، وبدون خوف ولا حرج من أحد. ولم يحوجوا أحدا إلى الدخول معهم في خصومات أو منازعات، ولم يشغلوا شرطيا ولا قاضيا ولا واليا. وإنما من تلقاء أنفسهم: اتقوا فارتقوا ...

- فالأول تحمل الصبر والسهر، وتحمل معاناة صبيته وتصبيرهم، وهو في ذلك داخلَ بيته وفي جوف ليله، لن يلومه أحد إن لم يفعل، ولن يشكر له أحد إن فعل . وحتى والداه ناما، ولم يبق منهما انتظار ولا تطلع إلى شيء . ومع ذلك فإنه ظل وفيًّا لبره وإحسانه، ورَعًا وتقوى وإخلاصا.

- والثاني مكث مدة طويلة يمني نفسه ويشهيها، ويجتهد ويتعب لنيل مبتغاه من محبوبته وفاتِنَتِه، إلى أن ظفر بها وتمكن منها بلا حائل ولا مانع . لكنه في اللحظة الحرجة جاءه نداء التقوى: «يا عبد الله اتق الله » . فنزع نفسه وقام تاركا شهوته بعد أن امتلكها وأمسك بها، وترك حتى المال الذي جمعه...

- وأما الثالث، فكان تصرفه أتقى وأرقى وأعجب مما سبق، لأن العمل الذي قام به، لم يكن صبرَ ليلةٍ، أو تقوى ساعةٍ، وإنما هو عمل سنين وصبر سنين وتقوى سنين . وواضح أن العامل صاحب الحق، حين جاء يطلب حقه الأصلي، وهو في أصله شيء يسير من الأرز، كان يتوقع جحودا أو نسيانا، أو مشاحة أو هزءا .

---

(١) رواه البخاري ٣/ ٧٩ (٢٢١٥) وفي مواضع أخرى؛ ومسلم ٤/ ٢٠٩٩-٢١٠٠ (٢٧٤٣) واللفظ له.

فلذلك توسل إلى صاحبه بتقوى الله، وبادره بالقول: اتق الله ولا تظلمني حقي . ثم قال بعد أن سمع ما سمع: اتق الله ولا تستهزئ بي...

لكنه فوجئ بأن تقوى صاحبه فوق ما كان يرجو، بل فوق ما كان يتخيل.

فلو أن الناس يتصرفون ويتعاملون على نحو هذا، وحتى بقليل من هذا، لوفروا على أنفسهم وعلى بعضهم ما لا يحصى من المشاكل والمتاعب، ومن النزاعات والخصومات، ومن الأوقات والنفقات، ولجلبوا لأنفسهم ومجتمعاتهم ما لا يحصى من المكاسب والمصالح والخيرات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]..

وإذا ظهرت معاني التقوى وآثارها الإيجابية الشاملة على سلوك الإنسان في كل أحواله، فلا شك أن أحوج الناس إلى التحلي الدائم بخلق التقوى ومقتضياتها، هو مَن يضع الناسُ أرواحهم وأبدانهم وأسرارهم وأعراضهم أمانةً بين يديه. إن ما يمكن أن يقدمه ويحققه الطبيب التقي بتقواه وإخلاصه،من حفظ لأرواح الناس وأبدانهم، وتخفيفٍ لآلامهم ومعاناتهم، وتوفير لأموالهم وجهودهم، لا يقل حجما ولا أهمية عما يقدمه من ذلك بعلمه وحنكته. فالطبيب التقي - بفضل تقواه وأمانته - يصبح رقيبَ نفسه وحسيبَ نفسه، فيستقيم باطنه وسِرُّهُ، قبل ظاهره وجَهْرِه. فنزاهةُ الطبيب التقي وأمانته لا تتوقف على القسم الطبي، مثلما أن نزاهة الحاكم التقي وأمانته لا تتوقف على القسم الدستوري. وأما من حُرم فضيلة التقوى وتركَ محاسبةَ نفسه بنفسه، فلا ينفع معه قسم يوناني ولا إسلامي.

ثانيا: الطب والشرع رأفة ورحمة:

من الأخلاق التي لا يستقيم بدونها شرع ولا طب: خُلُق الرحمة. وقد لخص بعض العلماء تكاليفَ الشرع ومقاصدَه كلها في كلمتين هما: «تعظيم الحق، والشفقة على الخلق».

فما هي هذه الرحمة التي تجسد وتضم نصف الديانة ونصفَ مقاصدها؟

- من حيث المعاني اللغوية:

الرَّحْمَةُ والـمَرحَـمة، تعني: الرِقَّة، والمَغْفِرَة، والتَّعَطُّف، والحنان [(١)] .

ومن الألفاظ الأكثر قربا من معنى الرحمة، لفظ الرأفة.

ومن اللغويين من يجعل الرأفة والرحمة شيئا واحدا، كما قال في المحيط: الرَّأْفَةُ: الرَّحْمَةُ[(٢)] . ومنهم من يجعل الرأفة أخص من الرحمة « الرَّأفَةُ: أشَدُّ الرَّحْمَةِ، أو أرَقُّها»[(٣)]، وفي (الصحاح): «والرَّأْفَةُ أَرَقُّ من الرحمة، ولا تكاد تقع في الكراهة، والرحمةُ قد تقع في الكراهة للمَصْلحةِ»[(٤)]، يعني أن الرحمة قد تكون حتى في فعل شيء يكرهه الشخص المرحوم ويتأذى منه ولو أن له فيه مصلحة، كما في الإلزام بالأدوية وبالعلاجات الطبية المؤلمة، بينما الرأفة لا تكاد تستعمل في هذا المقام.

والتفريق بين اللفظين هو الأوفق لدلالة الاستعمال القرآني، الذي جمع بين اللفظين، وعطف الرحمة على الرأفة، في عدة مواضع منه، والعطفُ يقتضي المغايرة . قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧] وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

[البقرة:١٤٣، والحج:٦٥]

قال ابن عاشور : «والرأفة: الرحمة المتعلقة بدفع الأذى والضرّ، فهي رحمة خاصة ...فعطفُ الرحمة على الرأفة، مِنْ عطف العام على الخاص، لاستيعاب أنواعه

---

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي ٣/ ٢٢٩، الصحاح في اللغة للجوهري ١/ ٢٤٧، لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٢٣٠، المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ١/ ١٥٩.

(٢) المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد ٢/ ٤٣٦.

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي ٢/ ٣٨١.

(٤) لسان العرب لابن منظور ٩/ ١١٢.

بعد أن اهتم ببعضها»[١] .

وإجمالا يمكن القول: إن معنى الرحمة يشتمل على معاني: الرقة، والرأفة، والعطف، والحنان، والمغفرة، والشفقة، والمودة، وما يتبع ذلك من دفع ضر أو أذى، أو جلب نفع، أو إسداء نصح، أو دفع ألم، أو تخفيفه، أو تقديم مساعدة أيا كانت ... ويشتمل كذلك على نفي أضداد هذه الصفات، مثل القسوة والشدة والغلظة والإذاية ...

- وأما المعاني الشرعية للرحمة، فهي تستوعب وتتضمن جميع المعاني اللغوية المذكورة، ثم تزيد عليها معانيَ ومجالاتٍ جديدة أعمقَ وأرحب. وفي الفقرات التالية أقدم بعض الإشارات التي تكشف لنا أن الرحمة التي جاءت بها الشريعة هي أعمق وأوسع مما نتصور، وأنها منهج حياة ومنهج سلوك، وأن من تخلق بالرحمة فقد فاز فوزا عظيما، ومن فقدها فقد خسر خسرانا مبينا.

فمن ذلك أن معاني الرحمة قد بثت وضُمِّنت فيما نعرفه ونذكره من أسماء الله تعالى وصفاته، لينهل منها الناس ويقتبسوا من إيحاءاتها. وسأوضح شيئا من ذلك بعد قليل بعون الله تعالى.

ومنها الرحمةُ بمعانيها وآثارها الدينية والأخروية، كالهداية والتوبة والمغفرة والتسبب إلى دخول الجنة والنجاة من النار. فمن جلب من ذلك شيئا لنفسه أو لغيره، فهي رحمة ما بعدها رحمة.

ومنها الرحمة المضمنة في صلة الرحم، والرحمة بمعنى المصلحة، المنضوية في كافة الأحكام الشرعية...

ومنها الرحمة الظاهرة في كافة أعمال البر والإحسان والنجدة والإغاثة

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤/ ٤٢٣.

والمواساة، وخاصة للضعفاء والمرضى والمصابين. وهنا تطالعنا صورة الطبيب، باعتباره أرحم الخلق بالخلق، أو هكذا يُفترض فيه.

وباختصار جامع، نستطيع أن نقول: حيثما كانت الرأفة والرحمة والشفقة، فثم شرع الله ورضاه وثوابه. وحيثما كانت الغلظة والفظاظة والقسوة، فثم خروج عن شرع الله ودخول في سخطه وتعرضٌ لعقابه.

ـ الرحمة في أسماء الله وصفاته :

الرحمة وما يندرج فيها ـ أو يتداخل معها ـ من المعاني التي ذكرتها، هي أوسع المعاني المضمنة في أسماء الله تعالى وصفاته . بل لا شك أن رحمة الله تعالى موجود معناها في كل أسماء الله وصفاته . ولكننا نعني الآن ـ خاصة ـ الأسماء المعبرة عن معاني الرحمة، بشكل ظاهر ومباشر.

– من هذه الأسماء وفي مقدمتها، الاسمان الشهيران من أسماء الله تعالى: (الرحمن الرحيم) . وهما أكثر أسماء الله ذكرا في حياة المسلم، لأنهما موجودان في البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وفي الفاتحة (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) . ولست أريد البحث في معاني الاسمين الشريفين وما قيل في التفريق بينهما، ولكني أقول إجمالا: إنهما ـ معا ـ قد جمعا كل معاني الرحمة الإلهية، الممتدة في الدنيا والآخرة. وهي الرحمة التي قال عنها الله – سبحانه – ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقالت عنها ملائكة الرحمن: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وأخبر عن نفسه تعالى بأنه ﴿الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، وأخبر جل جلاله أنه كتبها على نفسه وضَمِنها لخلقه ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].

فكل هذه الرحمة الشاملة واللامحدودة، مضمنة في دلالة الاسمين الجليلين:

الرحمن الرحيم.

على أن مما ينبغي تقريره، أن هذه الرحمة الشاملة اللامحدودة، التي كتبها الله على نفسه، والتي وسعت كل شيء، منها ما هو عام يعطَى لجميع الناس، بل لجميع الخلائق، بسبب وبدون سبب، بطلب وبدون طلب، ومنها ما هو خاص بأهله متوقف على أسبابه . فإذا كان القرآن رحمة، فهي لا شك لمن يؤمنون به ويتلونه ويتبعون ما فيه . وإذا كانت شريعة الله رحمة، فهي لمن يعملون بها، وإذا كانت توبة الله ومغفرته رحمة، فهي للتائبين المستغفرين ...

ـ ومن أسماء الله الدالة على الرحمة، اسم (الرؤوف)، الذي يأتي مقترنا مع اسم الرحيم، كما تقدم قريبا . وقد رأينا العلاقة والفرق بين الرأفة والرحمة.

ـ ومنها اسم (التواب)، وقريب منه اسم (الغفور)، وهما ـ أيضًا ـ من الأسماء الحسنى التي يكثر ورودها في القرآن الكريم مقترنة مع اسم (الرحيم) . أذكر من ذلك الآيات الكريمات:

- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].
- ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:٦٤].
- ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠].
- ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ . [الأنعام:٥٤]

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩].

- ومنها اسم (الحَنَّان)، الذي يأتي مقترنا مع اسم آخر شبيه به، هو اسم (المَنَّان)[١]، كما في حديث أنس بن مالك قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالسا في الحلقة، ورجل قائم يصلي. فلما ركع سجد وتشهد دعا فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم اللهم إني أسألك. فقال النبي ﷺ: «**أتدرون بما دعا**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم فقال: «**والذي نفسي بيده لقد دعا باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى**»[٢] .

واسم (الحنَّان) من الأسماء الأكثر قربا وشبها باسم (الرحيم). قال البيهقي في الأسماء والصفات: «وَمِنْهَا: الحنان . قال الحليميُّ : وهو الواسع الرحمة»[٣] .

ونقل عن ابن الأعرابي قوله: «الحنان من صفات الله الرحيم، والحَنَانُ، مخففا: العطف والرحمة والرزق والبركة»[٤] .

ومن الأسماء الأخرى، الدالة دلالة ظاهرة على صفة الرحمة في أسمائه تعالى: الغفار، العَفُوُّ، البَر، المحسن، المنعم، الحليم، الكريم، الوهاب، الرزاق، الولي، الودود.

---

(١) المنان: المنعم المعطي.

(٢) رواه أحمد ٢٠/ ٦١ (١٢٦١١)، ٢١/ ١٩٢ (١٣٥٧٠)؛ وأبو داود ٢/ ٢٨٤ (١٤٩٠)؛ والترمذي٥/ ٥٥٠ (٣٥٤٤)؛ والنسائي ٣/ ٥٢ (١٣٠٠)؛ وابن ماجه ٢/ ١٢٦٨ (٣٨٥٨) وقال الترمذي: حديث غريب.

(٣) الأسماء والصفات لأبي بكر البيهقي ٤٥٨ ١/ ٢٠٥، ط ١ - مكتبة السوادي بجدة.

(٤) الأسماء والصفات ١/ ٢٠٨.

فهذه الأسماء لها معانيها الخاصة، لكنها كلها متضمنة معنى الرحمة، ودالة على مدى شمولها وتنوع مداخلها وصورها.

وإن من أجَلِّ العبادات وأعظمها شأنا في الإسلام: الذكر بهذه الاسماء والصفات وتدبرُها، بنية التخلق بها والاقتباس من أنوارها والتزود بنصيب منها. فعن صفات الله تنبثق وتتدفق كل صفة كريمة رحيمة يمكن أن يتصف بها الإنسان. وعن رحمة الله، وعن اسميه (الرحمن الرحيم)، انبثقت فطرة الرحمة، التي فطر اللهُ الناسَ عليها . فمن رحمة الله أنه فطر الناس على الرحمة والتراحم، وعلى حب الرحماء والأفعال والصفات الرحيمة . فهم يحبون الرحمة منهم، ويحبونها لهم. ويسعدون ويسرون بالرحمة والتراحم، ويشقون ويألمون لأضداد الرحمة . وأما أضداد الرحمة، من قسوة وغلظة وتعذيب وإذاية للناس، فهي صفات وتصرفات كسبية، تؤخذ من البيئة والتنشئة الاجتماعية، وليست من الفطرة التي خلقت على حب الرحمة والبر والإحسان.

وفي مقدمة التراحم الفطري الذي وهبه الله للناس، تراحم ذوي الأرحام. ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته، ومن بَتَّها بَتَتُّه.[(١)]

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**الرحم شُجْنَة من الرحمن، قال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته.**»[(٢)] .

قال الحافظ ابن حجر: « ... وأصل الشجنة - بالكسر والضم والفتح - عروق الشجر المشتبكة، والشَّجَن بالتحريك واحد الشجون، وهي طرق الأودية، ومنه قولهم: «الحديث ذو شجون»، أيْ يدخل بعضه في بعض . وقوله: «من الرحمن» أي

---

(١) رواه أحمد ٣/ ٢١٣(١٦٨٠)، ٢١٦(١٦٨٦)؛ وأبو داود ٢/ ٣٨٧-٣٨٨ (١٦٩١)؛ والترمذي ٤/ ٣١٥-٣١٦ (١٩٠٧) من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

(٢) رواه البخاري ٨/ ٦ (٥٩٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أُخذ اسمها من هذا الاسم ... والمعنى: أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها؛ فالقاطع لها منقطع من رحمة الله»[(١)].

الرحمة في القرآن والسنة:

ورود لفظ الرحمة ومشتقاته في القرآن والسنة، يبلغ مئات المرات. وقد قدمتُ من ذلك - في الصفحات السابقة - ما استدعاه بيان معاني الرحمة وأنواعها ومجالاتها، وأُوردُ فيما يلي نماذجَ قليلة أخرى من النصوص القرآنية والحديثية، من مختلف مجالات الرحمة وأنواعها، ليظهر لنا من هذه وتلك أن خُلُق الرحمة أصل كبير من أصول الدين ومقصد عام من مقاصد شريعته.

أولا: من القرآن الكريم:

١- الكتب المنزلة كلها رحمة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾.

[يونس:٥٧، ٥٨]

- ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾

[الأعراف:٢٠٣، ٢٠٤]

- ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢].

- ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ﴾ [الأنعام:١٥٧].

- ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١٧/ ١١٥.

وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام:١٥٤].

- ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود:١٧].

٢- وفي نظام الزوجية والقرابة ـ الذي جاءت به الفطرة والشريعة ـ رحمة ومودة وسكينة، كما في هذه الآيات:

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١].

- ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٣، ٨٤].

- ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ ﴾ [ص:٤٣]

٣- وفي الحكم بالقصاص حكمة ورحمة، للمجتمع وأمنه وسلامة أرواحه . وفي مشروعية العفو في القصاص كذلك رحمة وحكمة، تنقذ الأرواح التائبة النادمة، وتنشر التصافح والتسامح والتصالح .وكل هذا يشير إليه قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

[البقرة: ١٧٨، ١٧٩]

٤- وفي كل ما شرعه الله وكلفنا به رحمة وطريق إلى الرحمة ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴾[التوبة:٧١].

٥- ورحمة الله في بعض أنواعها ومراتبها، لا ينالها إلا من سعى إليها وتأهل لنيلها، كما تفيد ذلك آيات كثيرة منها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٤، ١٧٥].

- ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾[لقمان:١-٣].

-﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

- ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]..

ثانيا: من السنة النبوية:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[1]. وفي رواية لمسلم: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين

---

(١) رواه البخاري ٨/ ٩٩ (٦٤٦٩).

رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة »[(١)] .

٢- عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[(٢)] .

٣- عَنْ جَرِير بْنِ عَبْدِ اللـهِ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يرحم اللهُ من لا يرحم الناسَ»[(٣)] .

٤- عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(٤)] .

وقد خصص الإمام البخاري عدة أبواب من صحيحه للأحاديث الواردة في الرحمة، ومنها الباب السابع والعشرون من كتاب الأدب، وهو (باب رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ) . وفيه أورد – مما أورده – حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له». قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا ؟! فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[(٥)] .

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٠٨ (٢٧٥٢)/ (١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه أحمد ١١/ ٣٣ (٦٤٩٤)؛ وأبو داود ٥/ ٣٣٠ (٤٩٠٢)؛ والترمذي ٤/ ٣٢٣-٣٢٤ (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري ٩/ ١١٥ (٧٣٧٦)؛ ومسلم ٤/ ١٠٨٩ (٢٣١٩).

(٤) رواه البخاري ٨/ ١٠ (٦٠١١)؛ ومسلم ٤/ ٢٩٩٩-٣٠٠٠ (٢٥٨٦)/ (٦٦).

(٥) رواه البخاري ٣/ ١٣٢-١٣٣ (٢٤٦٦)، ٨/ ٩-١٠ (٦٠٠٩)؛ ومسلم ٤/ ١٧٦١ (٢٢٤٤).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها - أي خفها- فغفر لها**»(١) .

قال أبو الحسن بن بطَّال في تعليق عام له على أحاديث الباب من صحيح البخاري: «في هذه الأحاديث الحضُّ على استعمال الرحمة للخَلْق كلهم، كافرِهم ومؤمنِهم، ولجميع البهائم، والرفقُ بها. وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفِّر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعمَلها في أبناء جنسه وفي كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا. وكلٌّ أحد مسئول عما استُرعِيَه ومُلِّكه من إنسان أو بهيمة لا تقدر على النطق وتَبيينِ ما بها من الضر. وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجده بالفلاة، لم يكن له مِلكًا، فغفر الله له بتكلفه النزولَ في البئر وإخراجه الماء في خفه وسقيه إياه. وكذلك كل ما في معنى السقي من الإطعام، ألا ترى قوله ﷺ: «**ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة**»(٢). ومما يدخل في معنى سقي البهائم إطعامُها والتخفيف عنها في أحمالها وتكليفُها ما تطيق حمله، فذلك من رحمتها والإحسانِ إليها . ومن ذلك ترك التعدي في ضربها وأذاها وتسخيرها في الليل وفى غير أوقات السخرة، وقد نُهينا في العبيد أن نكلفهم الخدمة في الليل، فإن لهم الليل ولمواليهم النهار، والدواب وجميع البهائم داخلون في هذا المعنى»(٣) وقال عز الدين بن عبد السلام في بيان كيف يحقق للعبد التحلي والتخلق بصفتَي الرأفة والرحمة - من صفات الله -: «والتخلق بهما، برحمة كل من قدرتَ على رحمته بأنواع ما تقدر

(١) صحيح مسلم .

(٢) رواه البخاري ٨/ ١٠ (٦٠١٢)؛ ومسلم ٣/ ١١٨٩ (١٥٥٣)/ (١٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/ ٢١٩، ٢٢٠، ط . مكتبة الرشد بالرياض.

عليه من الرأفة والرحمة، حتى تنتهي رحمتك إلى الذباب والذر...»[١].

نبيُّ الرحمة وشريعة الرحمة:

إذا كانت الرحمة صفة عظيمة من صفات الله العُلَى، واسمًا جليلا من أسمائه الحسنى، وهي فطرته التي فطر الناس عليها، فمن الضروري - ومن الطبيعي - أن تكون رسالاته وشرائعه لخلقه على هذا المنوال . فشريعته تعالى لخلقه، مطابقة ومكملة لفطرته التي فطرهم عليها.«فالتشريع الديني أثر من آثار رحمة الله للعباد ومنهل من مناهل اللطف بهم، حيث جعل بينهم وبين المضار حصونا منيعة، وساق إليهم المنافع كما يساق الماء إلى الأرض الجُرُز...»[٢].

وقد بين الله تعالى أن البعثة المحمدية - ومثلها بعثة كافة الرسل - إنما هي رحمة ولأجل الرحمة:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]،
- ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التوبة:٦١].
- وفي الحديث: «إنما أنا رحمة مهداة»[٣].
- وقيل لرسول الله ﷺ ادعُ اللهَ على المشركين والعنهم، فقال: «إني إنما بُعِثْتُ

(١) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعز بن عبد السلام ص ٤٠، ط. بيت الأفكار الدولية.

(٢) العبارة للشيخ محمد العزيز جعيط، من مقاله «المقاصد الشرعية وأسرار التشريع»، المجلة الزيتونية، المجلد الأول - العدد الثالث - رجب ١٣٥٥/ سبتمبر١٩٣٦.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٥؛ والبزار في مسنده ١٦/ ١٢٢ (٩٢٠٥)؛ والطبراني في الأوسط ٤/ ٨ (٣٠٠٥)؛ وفي الصغير (الروض الداني ١/ ١٦٨ رقم ٢٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقال الحاكم: صحيح على شرطهما. ووافقه الذهبي.

رحمة، ولم أُبعَثْ لعّانا»[(١)] .

• وفي الدعاء المأثور : «اللهم إني أسألك وأتوجَّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة»[(٢)] .

ومن أجمع الكلمات وأصدقها في وصف الشريعة الإسلامية، كلمة ابن قيم الجوزية، التي يقول فيها: «فإن الشريعة ...عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالحُ كلها، وحكمة كلها»[(٣)] .

وهذه قبسات تطبيقية من شمائل «النبي الرحمة المهداة»، تظهر لنا مدى تخلق رسول الله ﷺ بخلق الرحمة في عامة أفعاله وأقواله.

• ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

• ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦].

• ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران :١٥٩].

• حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال، قال رجل يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يُطَول بنا فلان، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبا من يومئذ

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٠٠٦-٢٠٠٧ (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه أحمد ٢٨/ ٤٧٨(١٧٢٤٠)؛ والترمذي ٥/ ٥٦٩ (٣٥٧٨)؛ والنسائي في الكبرى ٩/ ٢٤٤ (١٠٤١٩)؛ وابن ماجه ١/ ٤٤١ (١٣٨٥) من حديث عثمان بن حنيف ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم ٣/ ٣، ط . دار الجيل، بيروت.

فقال: « أيها الناس، إنكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة »[١]

- وحديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»[٢].

- حديث مالك بن الحويرث ﷺ قال أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة . وكان رسول الله ﷺ رحيما رقيقا، فظن أنّا قد اشتقنا أهلنا، فسألَنا عن من تركنا من أهلنا، فأخبرناه فقال: «ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم ... »[٣].

الرحمة ومسألة القتل الرحيم ؟ :

من القضايا الطبية ذاتِ الصلة بخُلُق الرحمة، قضية ما يسمى بالقتل الرحيم، وهو قيام الطبيب بالإجهاز على حياة المريض المعذب الميئوس منه طبيا، وذلك بطلب من المريض نفسه، أو بطلب من ذويه، إذا كان هو في غيبوبة تامة متواصلة. ويتم هذا القتل «الرحيم»، بداعي الرحمة والشفقة وإنهاء المعاناة.

وهذه القضية قد أخذت حظها من البحث الفقهي، وأجمع فقهاء الإسلام على تحريم هذا الفعل وأنه قتل للنفس لا يجوز بحال. ولذلك لا حاجة بي للاستطراد في هذا الاتجاه، كما أن ذلك ليس من طبيعة هذا البحث ولا هو من غرضه. ولكني أعرج فقط على الجانب الخلقي والمقاصدي، الذي تسوَّغُ به هذه القضية، على أساس أن فيها رحمة للمريض وتخليصا له من عذابه الذي لا فائدة ترجى من وراء تحمله.

---

(١) رواه البخاري ١/ ٣٠ (٩٠)؛ ومسلم ١/ ٣٤٠ (٤٦٦).

(٢) رواه البخاري ١/ ١٤٣ (٧٠٩)؛ ومسلم ١/ ٣٤٣ (٤٧٠)/ (١٩٢).

(٣) رواه البخاري ١/ ١٢٨ (٦٢٨)، ١٣٨ (٦٣١)؛ ومسلم ١/ ٤٦٥ (٦٧٤)/ (٢٩٢).

والحقيقة أن هذه نظرة قصيرة وقاصرة...

فهي أولا تفتح باب المجازفة والاستهانة بالأرواح البشرية وحرمتها، خاصة وأن احتمالات الشفاء - مهما تضاءلت - تظل قائمة.

ثم إنه ليس هناك ألم يمكن أن يكون وزنه أرجحَ من حفظ الروح البشرية. ولو جاز تقديم رفع الألم على حفظ النفس، لجاز الانتحار والمساعدة عليه، لمن اشتدت بهم الآلام، وسدت في وجوههم الآمال.

وقد ذكرتُ من قبل أن الرحمة في العقيدة الإسلامية تشمل رحمة الآخرة وما يفضي إليها من ثواب وتوبة ومغفرة. وقد صح في الأحاديث النبوية أن الآلام فيها محو السيئات ورفع الدرجات، تخفيفا من ربكم ورحمة. فقد قال عليه الصلاة والسلام: **«ما يصيب المسلمَ من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»** [(١)].

وقال أيضا: **«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»** [(٢)]. وهذه رحمة أيُّ رحمة.

وكل هذا من أجل أن يصبر المصاب ويتَقَوَّى على محنته، ويتشبث بأمله، ويحافظ على حياته.

*****

(١) الحديث متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

*****